أرثر ماكين

الإلَه العظيم بَـان

(مذكرات لإثبات وجود الشيطان)

ترجمة أحمد صلاح المهدي

الكتـــــــــاب: **الإله العظيم بان**

المـــؤلـــــف: **آرثر ماكين**

تـــرجـــمـــة: **أحمد صلاح المهدي**

تصميم الغـــلاف: **إسلام مجاهد**

المراجعة اللغوية: **مؤسسة إبداع للترجمة والنشر والتوزيع**

رقـــم الإيـــداع: 2016 / 25953

الترقيـم الدولـي: 978 - 977 - 779 - 131 - 1

الإخـراج الفنـــي: **مؤسسة إبداع للترجمة والنشر والتوزيع**

المدير العام: عيد إبراهيم عبدالله

جميع الحقوق محفوظة

وأي اقتباس أو تقليد، أو إعادة طبع، أو نشر دون موافقة قانونية مكتوبة يعرض صاحبه للمساءلة القانونية، والآراء والمادة الواردة وحقوق الملكية الفكرية بالكتاب خاصة بالمؤلف فقط لا غير.

العنوان: 40 ش محمد فريد، وسط البلد، القاهرة

هاتف: 0227931911 - **موبايل:** 01001631173

الموقع الإلكتروني: www.prints.ibda3-tp.com

البريد الإلكتروني: info@ibda3-tp.com

الإلَه العظيم بَـان

أرثـر ماكين

تـرجمة : أحمد صلاح المهدي

الإهداء

إلى عشاق أدب الرعب والفانتازيا في الوطن العربي، أُهدي إليكم ترجمتي لهذا الكتاب.

مقدمة المترجم

ينتمي آرثر ماكين (١٨٦٣ ـ ١٩٤٧) لنوع من الأدب يسمى الخيال الغريب Weird Fiction وهو نوع فرعي من الأدب التأملي الذي ينقسم إلى الفانتازيا والخيال العلمي والرعب وغيرها، ويعد ماكين واحدًا من الآباء الروحين لهذا النوع من الخيال؛ وإن لم يحظ بمثل شهرة العديد من رموزه مثل إدجار آلان بو ولافكرافت وغيرهما.

ولد آرثر ماكين في ويلز في منطقة يُشار إليها باسمها الويلزي القديم "جوينت" وينحدر ماكين من سلالة طويلة من رجال الدين، وفي عمر الحادية عشر تخرج من مدرسة هيريفود الكاتدرائية بتقدير ممتاز، إلا أن فقر عائلته منعه من الالتحاق بالجامعة، فتم إرساله إلى لندن لعمل اختبارات الالتحاق بمدرسة الطب، إلا أنه فشل في ذلك. ومع ذلك فقد أبدى ماكين تألقًا في

مجال الأدب، وفي ١٨٨١ قام بنشر أولى قصائده الطويلة والتي تحمل اسم "إلوسينيا" وكان موضوعها أسرار اليوسيس (هي عبارة عن مراسم للبدء تقام كل عام لعبادة ديميترو برسفون في مدينة إلفسينا في اليونان القديمة). وقد عاش ماكين في لندن حياة فقيرة ما بين عمله كصحفي، ومحرر للناشرين، ومعلم خصوصي للأطفال، بينما يقضي مساءه في الكتابة أو التجول على غير هُدى في شوارع لندن.

في عام ١٨٨٤ قام بنشر عمله الثاني "تشريح التبغ" والذي أمن له عملاً مع الناشر والموزع جورج رادواي، كمفهرس ومحرر في مجلته، وهذا فتح له أبواب عمل أخرى، كمترجم من اللغة الفرنسية، مثل الحكايات الفانتازية الفرنسية ومذكرات كازانوفا وغيرها. واستخدم ماكين في ترجمته لغة إنجليزية مفعمة بالحيوية والحماس أصبحت مقياسًا للمترجمين إلى الإنجليزية لسنوات عديدة.

استمر ماكين في نشر القصص القصيرة بالمجلات الأدبية، والتي اتخذ بعضها الطابع الخيالي أو القوطي، قبل أن يقوم

بكتابة أول نجاح كبير له، رواية "الإله العظيم بان" التي هي بين أيدينا الآن، وقد نشرت لأول مرة عام ١٨٩٠ بمجلة The Whirlwind وقام آرثر ماكين بتنقيحها وأضاف الكثير من التفاصيل لها لتنشر في شكل كتاب مستقل سنة ١٨٩٤.

وقد أثارت الرواية عند نشرها ضجة كبيرة، وأصبحت واحدة من كلاسيكيات أدب الرعب، وقد أثنى لافكرافت على الرواية قائلاً: "لا أحد يستطيع وصف التشويق اللامتناهي، والرعب المطلق الموجود في كل فقرة من فقرات الكتاب."

وقال عنها كاتب الرعب الأمريكي الشهير ستيفن كينج أنها "أفضل رواية كتبت في أدب الرعب باللغة الإنجليزية." وقال إن هذه الرواية حرمته من النوم ليالٍ طويلة.

ولم يقتصر تأثير الرواية على لافكرافت أو ستيفن كينج فقط، بل هناك غيرهما من الكتاب من أشادوا بالرواية أو حاولوا مُحاكاتها في أعمالهم الأدبية، مثل رواية "السلالة التي لا اسم لها" للكاتب كلارك أشتون سميث، ورواية "حكاية شبح" للكاتب بيتر ستراوب، كما تم ذكر رواية ماكين بالاسم في رواية

"مذكرات عثة" للكاتب راتشل كلاين، والعديد من الكتاب الآخرين.

ولم يقتصر أثر رواية "الإله العظيم بان" على الأدب والروايات فقط، بل على أنواع أخرى من الفنون أيضًا، ففي عام ٢٠٠٨ تم تحويلها إلى مسرحية على يد المخرج تشارلي شيرمان، كما أن أغنية Pan's Daughter لفريق الروك الأمريكي Flummox مُستوحاة من الرواية.

وقد تُرجمت الرواية - على مدار السنوات - إلى العديد من اللغات، وهذه الترجمة الموجودة بين يديكم هي الترجمة العربية الأولى للكتاب، وهي أول ما يُترجم للكاتب آرثر ماكين إلى اللغة العربية، ليتعرف القارئ العربي على واحدة من أروع كلاسيكيات الأدب الإنجليزي.

المترجم

أحمد صلاح المهدي

١
التجربة

– أنا سعيد لأنك حضرت يا كلارك، سعيد حقا، لم أكن متأكدًا أن لديك وقتًا لذلك.

– استطعت تدبير أموري لبضعة أيام؛ الأمور ليست مبشرة هذه الأيام، ولكن أليس لديك أي شك يا ريموند؟ هل أنت متأكد أن العملية آمنة؟

كان كلا الرجلين يقطعان الباحة أمام بيت د. ريموند ببطء، والشمس لا تزال متعلقة في الأفق وراء سلسلة الجبال الغربية، ولكنها كانت تومض بضوء أحمر باهت لا يلقي أي ظلال، والهواء كان ساكنًا؛ وهبت نسمة هواء باردة من الغابة الكبيرة على جانب التلال، ومعها يأتي صوت هديل الحمام البري من وقتٍ لآخر، وبالأسفل في الوادي الطويل المبهج يتعرج النهر قاطعًا

التلال المنفردة، وبينما الشمس تتوارى في الأفق الغربي، بدأت سحابة من الضباب ترتفع من التلال، والتفت د. ريموند إلى صديقه قائلاً:

– آمنة؟ بالطبع آمنة. العملية في حد ذاتها بسيطة للغاية؛ يمكن لأي جراح القيام بها.

– ولا يوجد خطر في أي مراحل من مراحلها؟

– على الإطلاق، ولا أي نوع من الخطر الجسدي، أعدك. أنت دائمًا متردد يا كلارك، دائمًا؛ ولكنك تعرف تاريخي. لقد سخرت حياتي طوال العشرين عامًا الماضية في التأمل التجاوزي . ونعتني الناس بالدجال والمحتال والمدعي، ولكن طوال الوقت كنت أعرف أنني في الطريق الصحيح، منذ خمسة أعوام وصلت إلى هدفي، ومنذ ذلك الحين فإن كل يوم يعد بمثابة إعداد من أجل ما سيحدث الليلة.

عقد كلارك حاجبيه وهو ينظر بشك ناحية د. ريموند قائلاً:

– أود أن أصدق أن كل هذا حقيقي، هل أنت متيقنٌ يا ريموند أن

نظريتك ليست محض أوهام؛ إن التصور رائع بالتأكيد، ولكنه مجرد تصور رغم كل شيء؟

توقف د. ريموند عن السير والتفت بحدة، كان رجلاً في منتصف العمر، هزيلاً ورفيعًا، ذا بشرة شاحبة صفراء، واحمرت وجنتاه وهو يواجه كلارك ليجيبه قائلاً:

- أنظر حولك يا كلارك. أنت ترى الجبل، والتل تلو التل، كالأمواج المتلاحقة، أنت ترى الغابات والبساتين، وحقول الذرة الطازجة، والمروج التي تمتد حتى تصل إلى نباتات القصب على ضفاف النهر، أنت تراني أقف بجوارك، وتسمع صوتي؛ ولكني أخبرك أن كل هذه الأشياء - من النجوم التي تلمع في السماء حتى الأرض الصلبة أسفل أقدامنا - أقول لك إن كل هذه الأشياء مجرد أحلام وخيالات، الظلال التي يتوارى فيها العالم الحقيقي عن أعيننا، هناك عالم حقيقي، ولكنه يكمن وراء هذا السحر وهذا الخيال، وراء هذه الزخرفة، وهذا الجمال، مختبئ وراء كل هذا كأنه يختبئ وراء حجاب، لا أظن أن هناك كائن بشري استطاع كشف هذا الحجاب من قبل؛ ولكني أعرف يا

كلارك أننا سنرى هذا الحجاب يُكشف قبل أي إنسان آخر هذه الليلة، قد تظن أن كل هذا محض هراء، قد يكون غريبًا، ولكنه حقيقي، وقد عرف القدماء معنى كشف الحجاب، وأطلقوا عليه رؤية الإله بان [١].

اقشعرَّ بدن كليرك؛ فالضباب الأبيض المتجمع فوق النهر كان باردًا، وقال:

– هذا رائع بالفعل، نحن نقف على حافة عالم غريب يا ريموند؛ لو كان ما تقوله حقًا. هل السكين ضرورية بالفعل؟

– نعم؛ قطع صغير في المادة الرمادية[٢]، هذا كل شيء؛ إعادة ترتيب بسيط لبعض الخلايا، تعديل ميكروسكوبي من شأنه أن يخفى عن ملاحظة تسعة وتسعين من كل مائة متخصص،

---

(١) بان: Pan حسب الميثولوجيا الإغريقية هو إله المراعي والصيد البري والأحراش. يظهر بقرون وأرجل ماعز على جسد بشري، ويفترض أن ظهوره المفاجئ يسبب رعب شديد مماثل للهلع الذي يصيب القطعان، وقد اشتقت كلمة Panic الانجليزية ـ والتي تعني الرعب الشديد ـ من اسمه. (معجم أوكسفورد)

(٢) المادة الرمادية: (بالإنجليزية: Grey matter) هي أحد العناصر الأساسية في الجهاز العصبي المركزي تتكون من خلايا عصبية وإسفنجات العصبونات وخلايا دبقية وشعيرات دموية (ويكيبيديا)

لا أريد أن أزعجك بالتفاصيل يا كلارك؛ يمكنني أن أعطيك مقدارًا هائلاً من المعلومات التقنية التي سوف تبدو لك مهيبة وفخمة، ولكني لن أزيد من فهمك للأمر بقدر ما تفهمه أنت الآن، ولكنني أفترض أنك قرأت عرضًا في الركن المنزوي من صحيفتك، أنه في الآونة الأخيرة تم قطع شوط هائل في فسيولوجيا المخ، يكفي أن أخبرك أنه منذ خمس سنوات قمت بالاكتشاف الذي ألمحت إليك به عندما قلت لك منذ عشر سنوات أنني وصلت إلى هدفي.

بعد سنوات من المعاناة، سنوات من الكدح وتلمس الطريق في الظلام، بعد أيام وليالٍ من الإحباط وأحيانًا اليأس ـ الذي اعتدت عليه بين الحين والآخر وأنا ارتجف من البرودة التي تعتري جسدي عندما أفكر أنه ربما هناك آخرين يسعون وراء ما أسعى إليه ـ وأخيرًا، بعد ردح من الزمن، أثارت روحي سعادة غامرة، وعرفت أن رحلتي الطويلة أوشكت على نهايتها، من خلال ما بَدَا حينها ـ وما يزال يبدو ـ أنه صدفة، وبدافع من فكرة خطرت عليّ في لحظة خُمُول قررت تتبع نفس الخطوط

التي تتبعتها مئات المرات بالفعل

وفجأة التمعت أمامي الحقيقة الهائلة، ورأيت أمام عيني يرتسم في خطوط عالم كامل، كونًا مجهولاً، قارات وجزر، ومحيطات عظيمة حيث لم يبحر إنسان من قبل ـ بحسب اعتقادي ـ منذ أن ألقى الإنسان النظر للمرة الأولى على الشمس، والنجوم في السماء، والأرض أسفل قدميه، قد تعتقد أنها مجرد كلمات مُنَمَّقة يا كلارك، ولكنه من الصعب أن تصف الأمر بشكل حرفي، فإن ما ألمح إليه لا يمكن وصفه بمجرد كلمات، على سبيل المثال، عالمنا هذا محاطٌ بشبكة هائلة من الأسلاك والكابلات، والأفكار تنتقل من الشمال إلى الجنوب بسرعة البرق عبر البحار والصحراء القاحلة.

فلنفترض أن كهربائيًّا من الزمن الحاضر كان هو وأصدقائه يلعبون بالحصى وهم يعتقدون بالخطأ أنها أساسات العالم؛ فلنفترض أن هذا الرجل رأى الفضاء اللامتناهي مفتوحًا أمام عينيه، ورأى كلمات الإنسان تصل إلى الشمس وإلى ما وراء الشمس إلى مجموعات شمسية أبعد بكثير، وأن صدى صوت

الإنسان يتردد في الفراغ اللامتناهي الذي يتخطى تصورنا، وبفهم هذا التشبيه، وهو تشبيه جيد، تستطيع أن تفهم الآن ما أحسست به وأنا أقف هنا ذات مساء ـ وكانت ليلة صيفية، والـوادي يبدو حينها كما يبدو الآن ـ وقفت هنا، ورأيت أمام عيني ما لا يُوصف، البرزخ الفاصل المفتوح بين عالمين، العالم المادي والعالم الروحي؛ رأيت الفراغ العظيم يمتد باهتًا أمام عيني.

وفجأة قفز جسرٌ من الضوء من الأرض إلى الشاطئ المجهول، عابرًا الهاوية، إذا اطلعت على الكتب العلمية فإنك ستعرف أن العلماء يجهلون وجود ـ أو على وجه الدقة مهمة ـ مجموعة معينة من الخلايا العصبية في المخ، هذه الخلايا هي أرض خصبة للنظريات الخيالية، أنا لست أجهل الأمر كهؤلاء العلماء، أنا تعرفت بالفعل على الوظيفة الممكنة لهذه الخلايا العصبية في نظام العالم، بلمسة واحدة أستطيع أن أقوم بتحفيزها، بلمسة ـ كما أقـول ـ أستطيع تحرير التيار، بلمسة أستطيع أن أكمل التواصل بين العالم المحسوس و .... نستطيع أن نكمل حديثنا

لاحقًا. نعم، السكين ضرورية؛ ولكن فكر فيما ستقوم هذه السكين بفعله، ستقوم برفع مستوى الحواس، وفي الغالب، لأول مرة منذ خلق الإنسان، روح بشرية ستحدق في العالم الروحي، كلارك، ماري سوف ترى الإله بان!.

– ولكن هل تذكر ما كتبته لي؟ اعتقد أنه سيكون شرطًا أنها ....

وهمس بالبقية في أذن الدكتور.

– لا على الإطلاق! هذا هراء، أنا أؤكد لك، إنه أفضل كما هو هكذا؛ أنا متأكد من ذلك.

– فكر في الأمر جيدًا يا ريموند، إنها مسؤولية عظيمة، قد يحدث خطأ ما؛ سوف تصبح إنسانًا تعيسًا لبقية حياتك.

– لا، لا أعتقد ذلك، حتى لو حدث أسوء ما نتوقعه، لقد أنقذت ماري من حياة بائسة ومن الموت جوعًا، أعتقد أن حياتها ملكي، أتصرف بها كما يحلو لي، هيا بنا، لقد تأخر الوقت؛ من الأفضل أن ندخل الآن.

تبع كلاركد. ريموند إلى داخل البيت، مرورًا بالبهو، ونزولاً إلى

ممر طويل مظلم، أخرج ريموند مفتاحًا من جيبه وفتح الباب الثقيل، وقاد كلارك إلى معمله، والذي كان في يوم من الأيام حجرة بلياردو، وكان مضاءً بمصباح زجاجي في منتصف السقف، وسقط الضوء على الدكتور وهو يضيء المصباح ملقيا ظلالاً كثيفة على المكان قبل أن يضعه على الطاولة بمنتصف الغرفة.

نظر كلارك حوله، بالكاد يوجد موضع قدم فارغ في الغرفة؛ كانت هناك رفوف في كل مكان محملة بزجاجات وقوارير من كل الأحجام والألوان، وبإحدى الجوانب توجد مكتبة انجليزية صغيرة، أشار ريموند ناحيتها قائلاً:

– هل ترى هذه الشهادة من اوزوالدكروليوس[1]؟ لقد كان واحدًا من أوائل من أروني الطريق، بالرغم من أنني أعتقد أنه لم يجده بنفسه، ومن المقولات المأثورة عنه في كل حبة قمح تكمن روح نجم.

---

(١) Oswald Crollius: كان خيميائيًا، وأستاذًا جامعيًا في كلية الطب بجامعة ماربورج في مدينة هسن، بألمانيا. (ويكيبيديا)

لم يكن هناك الكثير من الأثاث في المعمل، المنضدة في المنتصف، لوح حجري عليه مرشح في أحد الأركان، الكرسيين اللذين يجلس عليهما ريموند وكلارك؛ هذا كل شيء، باستثناء الكرسي غريب المنظر الموجود بنهاية الغرفة، نظر كلارك ناحيته ورفع حاجبيه. فقال ريموند:

– نعم هذا هو الكرسي، يجب علينا أيضا أن نضعه في موضعه.

انتفض واقفًا من موضعه، ودفع الكرسي المتحرك على عجلات إلى الضوء، وبدء يرفعه ويُخفضه، مهيئًا المقعد، ومُعدلاً الظهر لعدة زوايا، ضابطًا مسند القدمين، بدا مريحًا بما يكفي، ومرر كلارك يده على المخمل الناعم الأخضر، بينما الدكتور يعدل الروافع ببراعة.

– والآن، فلتحصل على بعض الراحة يا كلارك، أمامي عدة ساعات من العمل، فقد تحتم على ترك هذا الأمر إلى اللحظات الأخيرة.

ذهب ريموند إلى اللوح الحجري، وراقبه كلارك بتوجس وهو ينحني على صف من القوارير الزجاجية ويشعل النار أسفل

البوتقة، كان لدى الدكتور مصباح صغير، يلقي بالظلال كالمصباح الكبير، على الرف فوق أجهزته، وألقى كلارك بنظره على الغرفة الغارقة في الظلال، متعجبًا من هذا المزيج العجيب بين الضوء والظلال المتناقض أحدهم مع الآخر، سرعان ما أدرك وجود رائحة غريبة.

في البدء كانت مجرد رائحة غريبة في الغرفة، وكلما ازدادت قوةً تعجَّبَ كيف لم تذكره بمتجر الصيدلة أو العملية الجراحية، وجد كلارك نفسه يقترب على مهل من تحليل هذا الإحساس، بدأ يتذكر هذا اليوم، منذ خمسة عشر سنة مضت، حين اعتاد أن يتجول في الغابة والمروج بالقرب من بيته، كان يومًا حارًا في بداية أغسطس، والحرارة أخفت تفاصيل كل الأشياء في الأفق بضباب خفيف، والأناس الذين يلاحظون مقياس الحرارة تحدثوا عن قياس غير طبيعي، فالحرارة تكاد تكون استوائية.

بشكل غريب هذا اليوم الحار من الخمسينات برز في خيال كلارك، الضوء الرائع للشمس الذي يغمر كل شيء مَحَا الضوء والظلال الخاصة بالمعمل، وأحس مرة أخرى بالهواء الساخن

يضرب وجهه بلطفٍ، ورأى وميضٍ يتصاعد من الأعشاب، وسمع همهمات الصيف اللا متناهية حوله.

– أتمنى ألا تزعجك الرائحة يا كلارك، لا يوجد شيء ضار بها، قد تجعلك تشعر بالنعاس، هذا كل شيء.

سمع كلارك الكلمات كأنها تأتي من مكان بعيد، وعرف أن ريموند يتحدث إليه، ولكنه لم يستطع أن يخرج نفسه من الإحساس بالخمول، استطاع فقط أن يتذكر سيره وحيدًا في هذا اليوم منذ خمسة عشر عامًا؛ عندما ألقى نظرته الأخيرة على الغابات والحقول حين كان طفلاً، والآن كل شيء يغمره ضوءٌ باهر، كصورة أمام عينيه، وفوق كل شيء تسللت إلى أنفه رائحة الصيف، رائحة الورود الممتزجة، ورائحة الغابة، والأماكن الظليلة الباردة، بعيدًا في العمق الأخضر، مجلوبة بحرارة الشمس؛ ورائحة الأرض الطيبة، ممتدة كأنما تبسط ذراعيها، وابتسامة تعلو شفتيها، تُهَيْمن على كل شيء.

خيالاته جعلته يهيم، كما هام من قبل منذ زمن بعيد، من الحقول إلى الغابات، متبعًا ممر صغير بين أشجار الزان

المتشابكة؛ وقطرات الماء المتساقطة على أحجار الكلس تبدو كما لو كانت موسيقى واضحة في الحلم، بدأت الأفكار تبتعد وتختلط مع أفكار أخرى؛ الممر بين أشجار الزان تغير ليصبح ممرًّا بين أشجار البلوط، وهنا وهناك تتسلق كرمة من غصن إلى غصن، ترتفع بشكل متموج لولبي فيما يتدلى منها عناقيد العنب البنفسجي، والأوراق الخضراء الرمادية لأشجار الزيتون البري ترامت أمام ظلال أشجار البلوط.

كلارك في طيات عميقة من حلمه، كان يدرك أن الطريق من منزل والده قاده إلى ريف غير مُكتَشف، وكان يتعجب من غرابة الأمر كله، وفجأة، بدلاً من همهمات ودمدمات الصيف، خيم صمتٌ لا متناهٍ على كل شيء، وعمَّ السكون الغابة، وفي هذا الوقت وقف وجهًا لوجه أمام كائن، ليس بإنسان ولا وحش، لا ينتمي لشيء حي ولا ميت، ولكن كل الأشياء مختلطة، يحمل شكل كل شيء ولكنه مجرد من كل شكل منهم.

وفي تلك اللحظة، تلاشى السر المقدس للجسد والروح، وصاح صوتًا "لنذهب من هنا" وبعد ذلك ظلمة من ظلمات ما وراء

النجوم، ظلمة الأبدية، وعندما استيقظ كلارك رأى ريموند يسكب بضع قطرات من سائل زيتي في قارورة خضراء، وقد أقفلها بإحكام، ثم قال:

– لقد كنت تغفو، لابد أن السفر قد أتعبك، لقد انتهيت الآن. سأذهب لإحضار ماري، سأعود في عشرة دقائق.

أراح كلارك ظهره على الكرسي وهو يتعجب، لقد بدا له كما لو أنه قد انتقل من حلم إلى آخر، توقع بشكل ما أن يرى جدران المعمل تذوب وتختفي، ويستيقظ في لندن، مرتعدًا من خيالات نومه، ولكن بالنهاية انفتح الباب، وعاد الدكتور، ووراءه فتاة تبدو في السابعة عشر من عمرها، ترتدي ملابس بيضاء، كانت جميلة للغاية حتى أن كلارك لم يتعجب مما كتبه الدكتور له في الخطاب، تورد وجهها خجلاً وامتدت الحمرة إلى رقبتها وذراعيها، ولكن ريموند بدا غير متأثر، وقال:

– ماري، لقد حان الوقت، أنتِ حرة، هل أنتِ على استعداد بثقة أن تعهدي بنفسك لي بالكامل؟

– نعم يا عزيزي!

– هل تسمع هذا يا كلارك؟ أنت شاهدي، ها هو الكرسي يا ماري، الأمر بسيط للغاية، فقط اجلسي وأريحي ظهركِ للخلف، هل أنتِ مستعدة؟

– نعم يا عزيزي، جاهزة بالكامل، أعطني قبلة قبل أن تبدأ.

توقف الدكتور وقَبَّلَ فَمَهَا، على نحو عطوف بما يكفي:

– والآن أغلقي عينيك.

أغلقت الفتاة جفنيها، كما لو كانت متعبة، وتشتاق إلى النوم، ووضع ريموند القارورة الخضراء أسفل أنفها، ابيضَّ وجهها، أكثر من بياض فستانها، قاومت بشكل بسيط، وبعد ذلك وبشكل خاضعٍ عقدت زراعيها أمام صدرها كطفل صغير على وشك أن يتلو صلاته، سقط ضوء المصباح عليها، وكلارك يشاهد التغيرات تعتري وجهها، كتغير التلال عندما تعبر سحابة صيف أمام الشمس، وبعدها رقدت شاحبة وساكنة، ورفع الدكتور أحد جفنيها، كانت غائبة تمامًا عن الوعي، ضغط ريموند بقوة على أحد الروافع، وعلى الفور تراجع الكرسي للوراء، شاهده كلارك يحلق جزءًا دائريًا من شعرها، وقرَّب المصباح، وأمسك

ريموند بأداة صغيرة لامعة من حقيبة صغيرة، فأبعد كلارك وجهه مرتجفًا. وعندما نظر مرة أخرى كان الدكتور يضمد الجرح الذي صنعه.

قال ريموند الذي يبدو عليه الهدوء الكامل:

– ستستيقظ خلال خمسة دقائق، لا يوجد شيء آخر لنفعله، يمكننا فقط أن ننتظر.

مرت الدقائق ببطء؛ كان باستطاعتهما سماع صوت تكات بطيئة وثقيلة، فقد كانت هناك ساعة قديمة في الممر، أحس كلارك بالغثيان والدوار؛ واصطكَّت ركبتاه ببعضهما البعض، بالكاد يستطيع أن يقف.

فجأة، بينما هما يراقبان، سمِعَا صوت تنهّد طويل، واختفى الشحوب من وجه الفتاة ليعود إلى لونه الطبيعي، وفجأة فتحت عينيها، وارتجف كلارك أمامهما، فقد لمعا ببريق مخيف، وهما ينظران بعيدًا، ودهشة عظيمة تعلوا وجهها، ومدت يديها كأنها تحاول لمس شيء غير مرئي؛ ولكن في لمح البصر اختفى التعجب، وحل محله رعب هائل، عضلات وجهها كانت تتشنج

بشكل مُريع، وارتجفت من رأسها حتى أخمص قدميها، وكأن روحها تُنازع وترتعد في جسدها المادي، كان منظرًا مريعًا، وركض كلارك للأمام، وهي تسقط صارخة على الأرض.

بعد مرور ثلاثة أيام أخذ ريموند كلارك إلى سرير ماري، كانت ترقد مستيقظة، تحرك رأسها من جانب إلى آخر، وابتسامة بلهاء تعلو وجهها.

قال الدكتور ببروده المعتاد:

– نعم، إنه لأمر مؤسف حقًا، إنها حمقاء ميؤوس منها. ومع ذلك، لا يمكن مساعدتها، ولكن على كل حال، لقد رأت الإله العظيم بان.

٢

مذكرات السيد كلارك

السيد كلارك الرجل الذي وقع الاختيار عليه من قبل د. ريموند ليكون شاهدًا على التجربة الغريبة عن الإله بان، كان شخصًا يمتزج فيه الحذر والفضول بشكل غريب، كان يُبدي في الظاهر نفورًا تجاه الأمور الغامضة والمبهمة، ولكن كان يكمن في أعماق قلبه حب استطلاع واحترام لكل العناصر المبهمة والسرية في حياة الإنسان.

وظهر هذا الجانب الثاني بجلاء عندما قَبِل دعوة ريموند، فبالرغم من أن حكمه الشخصي على نظريات الدكتور كان أنها هراءٌ مطلق، إلا أنه وبشكل خفي كان يحمل اعتقادًا في الأمور الخارقة، وسيسعده أن يرى اعتقاده يتحقق، الرعب الذي شاهده في المعمل الكئيب كان مفيدٌ إلى حد ما؛ كان يُدرك أنه

تورط في أمر مشبوه، ولسنوات طويلة بعد ذلك تشبث بكل ما هو مألوف، رافضًا كل التحقيقات الغامضة.

بالطبع في بعض الحالات وعلى سبيل العلاج النفسي كان يذهب إلى جلسات تحضير الأرواح لبعض الوسطاء المشهورين، آملاً في أن تجعله الحيل الخرقاء لهؤلاء السادة مشمئزًا من الباطنية بكل أنواعها، ولكن العلاج بالرغم من أنه مؤلم إلا أنه كان غير فعال، كلارك كان يعرف أنه ما يزال يشتاق إلى الـ لا مرئي، وبمرور الوقت، بدأت العاطفة القديمة تفرض نفسها مجددًا، كما أخذ وجه ماري المرتعد والمتشنج من الرعب المجهول يختفي ببطء من ذاكرته، وبالرغم من كونه مشغولاً طوال اليوم فيما هو جدي ومربح، إلا أن الرغبة في الاسترخاء كانت تفرض نفسها عليه في المساء، وخاصة في أشهر الشتاء، حيث تُلقي النار بوهجها الدافئ في غرفته المريحة، وبعض زجاجات الخمر الفرنسي المختارة بعناية جاهزة بجانب مرفقه.

وبعد أن هضم عشاءه، أبدى رغبة مقتضبة في قراءة جريدة المساء، إلا أن فهرس الأخبار جعله يفقد شغفه بالأمر، ووجد

كلارك نفسه ينظر تجاه المكتب الخشبي الموضوع على مسافة مُغرية بالقرب من المدفأة راغبًا في بعض الدفء، وكطفل أمام مجموعة من الحلوى، وجد نفسه يشعر بالتردد للحظات، إلا أن الرغبة دائمًا ما تتغلب على الإنسان، وانتهى الأمر بكلارك إلى سحب الكرسي، وإضاءة شمعة، والجلوس أمام المكتب.

وكانت الرفوف المهملة والأدراج تزخر بالمستندات التي تتعلق بالموضوعات المرضية، وبالمنتصف كانت ترقد مخطوطة كبيرة، والتي دخل كلارك من خلالها إلى الرغبة في جمع المخطوطات بشكل مؤلم، فقد كان كلارك يشغل بالخجل من غرامه بالأدب المطبوع، وأدنى قصة كانت كفيلة بأن تثير اهتمامه إن كانت مطبوعة؛ سعادته الوحيدة كانت في قراءة، وجمع، وإعادة ترتيب ما أسماه "مذكرات لإثبات وجود الشيطان" وبينما هو منهمك في نشاطه مر المساء بسرعة وبدا أن الليل قصيرٌ جدًا.

وذات ليلة، من ليالي ديسمبر الكريهة، المظلمة الضبابية، الباردة كالصقيع، أنهى كلارك عشاءه على عجل، وبالكاد

تفضل بالقيام بطقسه المعتاد في رفع الجريدة وإلقاءها مرة أخرى، قطع غرفته سيرًا مرتين أو ثلاثة، ثم اقترب من مكتبه، واقفًا بصمت لعدة لحظات، ثم جلس، اتكأ للخلف، مسترجعًا تفاصيل أحد تلك الأحلام التي كان عبدًا لها، وبعد وقت طويل سحب كتابه، وفتحه على آخر ما قام بتدوينه، كان هناك ثلاثة أو أربعة صفحات مغطاة بما كتبه كلارك بخط مُنَمَّق، وفي البداية كان قد كَتَبَ بخط عريض:

رواية منفردة أخبرني إياها صديقي د. فيليبس، لقد أكد لي أن كل الحقائق متصلة هذا أمر صحيح وصادق بالكامل، ولكنه رفض أن يعطيني أيًا من الاسم الكامل للشخص المعنيّ بالأمر، أو عنوان المكان حيث وقعت هذه الأحداث غير المألوفة.

بدأ السيد كلارك يقرأ المكتوب للمرة العاشرة، ملقيًا نظرةً عابرةً بين الفَيْنة والأخرى على الملحوظات المكتوبة بالقلم الرصاص، والتي كتبها عندما سمع الأمر للمرة الأولى من صديقه. كانت واحدة من الأشياء الظريفة هي فخره بمقدرته الأدبية، فقد فكر جيدًا في أسلوبه، وبذل مجهودًا شاقًّا في

ترتيب الملابسات في تريب درامي. وقرأ القصة التالية:

الأشخاص المعنيين في هذا التقرير هم:

هيلين ڤـ. والتي ـ إن كانت لا تزال على قيد الحياة ـ تكون قد بلغت الثالثة والعشرين من العمر.

راشيل م. والتي توفت منذ فترة، وقد كان عمرها عامًا أقل من المذكورة أعلاه.

وتريڤور و. فتى مخبول في الثامنة عشر من العمر.

هؤلاء الثلاثة كانوا ـ أثناء الفترة الزمنية لأحداث القصة ـ من سكان قرية على حدود ويلز، والتي كانت ذات أهمية في أحد أحقاب الاحتلال الروماني، ولكنها الآن مجرد قرية عشوائية، لا يقطنها أكثر من خمسمائة شخص. وهي تقع على تل مرتفع، حوالي ستة أميال من البحر، ويحوطها غابة كبيرة فاتنة.

منذ إحدى عشر عامًا جاءت هيلين ڤـ. للعيش في القرية تحت ظروف خاصة. من المفهوم أنها ـ لكونها يتيمة ـ كانت مُتبناه في طفولتها من قبل قريب بعيد، والذي جلبها إلى بيته حتى بلغت

الثانية عشر من العمر، معتقدًا أنه مع ذلك سيكون من الأفضل أن يكون للطفلة أترابٌ في مثل عمرها، وأعلن في عدة جرائد محلية عن حاجته لبيت ريفي مُريح من أجل طفلة في الثانية عشر من عمرها، وقد استجاب لإعلانه السيد ر. مزارعٌ ثريّ من القرية المذكورة أعلاه.

وبناء على التأكيدات المُرضية، قام السيد المحترم بإرسال ابنته بالتبنّي إلى السيد ر. ومعها خطاب ينص على أن الفتاة يجب أن يكون لها غرفةَ وحدها، وأن على رُعاتها ألا يشغلوا بالهم بمسألة الدراسة، فقد تم تأهيلها جيدًا للمنصب الذي سوف تشغله في الحياة. في الواقع فإن تعليمات واضحة وُجهت إلى السيد ر. أن الفتاة يجب أن تشغل وقتها بما يحلو لها.

كان على السيد ر. أن يلتقي بها في أقرب محطة، والتي تقع على بعد سبعة أميال من بيته، وبدا أنه لم يلاحظ أي شيء غير مألوفٍ حول الطفلة باستثناء أنها كانت متحفظة بشأن حياتها السابقة مع والدها بالتبني. ملامحها مع ذلك كانت مختلفة تمامًا عن سكان القرية، فقد كانت بشرتها شاحبة، وملامحها

حادة بشكل واضح، وذات طابع أجنبي إلى حد ما.

وبدا أنها اعتادت على حياة الريف بسهولة، وأصبحت محبوبة بين الأطفال، الذين اعتادوا على الذهاب معها في نُزهاتها إلى الغابة، فقد كانت هذه هي تسليتها. وأوضح السيد ر. أنها اعتادت على مغادرة البيت بمفردها فورا بعد الإفطار، ولا تعود إلا بعد الغَسَق، ولم يرتح لبقاء الفتاة بمفردها ساعات طويلة، وتواصل مع والدها بالتبني، والذي أجاب في ملحوظة مقتضبة أن هيلين يجب عليها أن تتصرف كما تشاء.

في الشتاء، عندما تكون ممرات الغابة وعرة، ويتعذر اجتيازها، كانت تقضي معظم وقتها في غرفة نومها، حيث تنام وحدها، كما نص على ذلك قريبها. وقد وقعت أول حادثة من الحوادث الفردية التي يوجد ارتباطٌ بينها وبين الفتاة حين كانت في واحدة من تلك الرحلات إلى الغابة، ويعود تاريخها إلى سنة من وصول الفتاة إلى القرية.

كان الشتاء السابق للأحداث قاسيًا بشكلٍ ملحوظ، وتراكَمَ الثلج بشكل عميق، واستمر الصقيع فترات غير مسبوقة،

والصيف التالي كان مميزًا بحرارته الشديدة. وفي أحد الأيام الحارة للغاية في هذا الصيف، غادرت هيلين ڤـ. بيتها في نُزْهة طويلة إلى الغابة، مصطحبة كعادتها بعض الخبز واللحم من أجل الغداء. وقد شوهدت من قبل بعض الرجال في الحقول وهي تتجه ناحية الطريق الروماني، على طريقٍ أخضرٍ ممهد يجتاز أعلى بقعة في الغابة، واندهشوا لملاحظة أن الفتاة قد خلعت قبعتها، بالرغم من أن حرارة الشمس كانت في هذا اليوم استوائية.

وفي هذه الآونة، كان هناك عامل يحمل اسم جوزيف و. يعمل في الغابة بالقرب من الطريق الروماني، وفي الساعة الثانية عشر جاء ابنه الصغير تريڤور جالبًا له العشاء المُكَوَّن من خبز وجبن. وبعد تناول الوجبة، ترك الابن، البالغ من العمر حوالي سبع سنوات، والده في عمله، وتوجه ـ كما قال ـ ليبحث عن الزهور في الغابة، وكان الرجل الذي يسمعه يصيح فرحًا باكتشافاته لا يشعر بالقلق.

وفجأة، اعتراه الفزع وهو يسمع أكثر صرخة مُرَوِّعة في حياته،

من الواضح أنها ناتجة عن رُعب عظيم، آتية من الاتجاه الذي اختفى فيه ابنه. وبلا تردد ألقى الرجل أدواته، وركض ليرى ما الذي حدث، متلمسًا طريقه من خلال الصوت، فالتقى بابنه الذي كان يركض بتهوُّر، ومن الواضح أنه مرعوبٌ للغاية، وباستجوابه استنبط الرجل أن ابنه بعد أن قام بالتقاط بعض الزهور، أحسَّ بالتعب فنام على الأرض العشبية وغرق في النعاس.

واستيقظ فجأة على صوت محدد، زعِمَ أنه نوعٌ من الغناء، وباختلاس النظر بين الأغصان، رأى هيلين ڤـ. تلعب على العشب مع "رجل غريب عارٍ"، والذي لم يستطع وصفه بشكل كامل. قال إنه أحس بخوف مُريع، وركض مبتعدًا صائحًا على والده. سار جوزيف و. في الاتجاه الذي حدَّده ابنه، ووجد هيلين ڤـ. جالسة على العشب، في منتصف فرجة في الغابة، أو منطقة فارغة صنعت بواسطة حارقي الفحم.

اتهمها غاضبًا بإخافة ابنه الصغير، ولكنها أنكرت الاتهامات المُوجهة إليها، وضحكت على حكاية الطفل عن "الرجل

الغريب" والذي هو نفسه لم يظن فيها الكثير من المصداقية. وصل جوزيف و. إلى استنتاجٍ مُفاده أن الطفل قد استيقظ فَزِعًا كما يحدث أحيانًا للأطفال الصغار، ولكن تريفور تمسَّك بروايته، وقد بدا عليه التوتر الشديد، وبالنهاية أخذه والده إلى البيت، عسى أن تستطيع والدته تهدئته قليلاً. ولعدة أسابيع، أصاب الطفل والديه بالقلق، فقد أصبح عصبيًّا وغريبَ الأطوار، رافضًا أن يُغادر الكوخ وحده، وبشكل متكررٍ أصاب سكان البيت بالرعب باستيقاظه بالليل صارخًا "الرجل في الغابة! أبي! أبي!"

وبمرور الوقت، بدا أن هذه الطباع تخفُّ تدريجيًّا، وبعد ذلك الوقت بحوالي ثلاثة أشهر اصطحب الأب ابنه معه إلى بيت أحد السادة النُّبلاء في الحي، حيث اعتاد جوزيف و. أن يذهب أحيانًا للعمل. قام السيد بتوجيه الأب للقيام ببعض الأعمال فيما جلس الصبي وحده في بهْو البيت، وبعد دقائق عدة، وبينما الرجل النبيل يعطي الأبّ تعليماته، ارتعب كليهما على صوت صراخٍ حادٍّ يتبعه صوت سقوط، وخرج الرجُلان مندفعين ليجدا الطفل ساقطًا على الأرض فاقدًا الإحساس، ووجهه متلوٍّ

من الهلع.

تم استدعاء الطبيب على وجه السرعة، وبعد إجراء بعض الفحوصات، أقر أن الطفل مصابٌ بنوبةٍ عصبيةٍ، نتجت على ما يبدو من صدمة حادة. تم أخذ الصبي إلى أحد غرف النوم، وبعد مرور بعض الوقت استعاد وعْيه، فقط ليدخل في حالة وصفها الدكتور بأنها هيستيريا حادة. قام الدكتور بإعطائه مهدئًا قويًّا، وفي غضون ساعتين أعلن الطبيب أنه قادر على السير إلى البيت، ولكن أثناء سيرهم عبْر البهو عادت نوبة الخوف مع المزيد من الحدة. ولاحظ الأب أن الطفل يشير إلى شيء ما وسمع صيحته القديمة، "الرجل في الغابة".

وبالنظر في الاتجاه الذي يُشير إليه الطفل رأى رأسًا حجريًّا ذات شكل متنافر، والذي تم بناؤه في الحائط فوق أحد الأبواب. وعرف أن صاحب البيت قد قام مؤخرًا بإجراء بعض التعديلات في المباني الخاصة به، وأثناء الحفر لوضع الأساسات، عثر الرجال على تلك الرأس الغريبة، وبدا جليًّا أنها تنتمي للحقبة الرومانية، والتي كانت قد وضعت على النحو المبين.

أعلن العلماء المتخصصون في الآثار من المقاطعة أن الرأس هو رأس فون أو ساتير[١] (الدكتور فيليبس أخبرني أنه يرى الرأس موضع تساؤل، وأكد لي أنه لم يتلق من قبل مثل هذا الإحساس الواضح بوجود شرٍّ شديد.)

ولأي سبب كان، بدا أن هذه الصدمة الثانية كانت قاسية للغاية بالنسبة للصبي تريڤور، وحتى هذه اللحظة فإنه يعاني من ضعفٍ شديدٍ في معدلات العقل، والتي لا تُبشر بأي أمل ضئيلٍ في تحسنه. سببت هذه المسألة حساسية شديدة في ذلك الوقت، وتم استجواب الفتاة هيلين من قبل السيد ر. بشكل شخصي، ولكن بلا أي نتيجة تُذكر، فقد أنكرت بشدةٍ أنها قامت بإرعاب تريڤورأو إيذائه بأي طريقة.

الحديث الثاني الذي يرتبط باسم الفتاة وقع منذ حوالي ستة سنوات، وهي عن شخصية استثنائية أكثر من ذي قبل.

(١) Faun: فون (باللاتينية: Faunus) هو كائن ميثولوجي خيالي رأسه وجسمه العلوي إنسان ورجليه من الماعز مع وجود قرون له. (ويكيبيديا)

Satyr:ساتير (باليونانية: σάτυρος) هو ذكر من القوات المصاحبة لإله المراعي بان و ديونيسوس إله الخمر عند الإغريق القدماء وملهم طقوس الابتهاج والنشوة، الساتير له ملامح تشبه ملامح الماعز، بما في ذلك ذيل الماعز، وآذان الماعز. (ويكيبيديا)

في بدء صيف عام ١٨٨٢، عقدت هيلين صداقة ذات طابع حميم بشكلٍ غريبٍ مع راشيل م. ابنة مُزارعٍ ثريّ في الحي. وكانت الفتاة - وهي أصغر من هيلين بعام - تعتبر من قبل الجميع الأجمل في الاثنتين، بالرغم من أن ملامح هيلين اكتسبت نعومة كبيرة بعد أن أصبحت أكبر. مثل الفتاتان - اللتان كانتا تجتمعان سويًا في كل فرصة ممكنة - تباينًا فريدًا، واحدة ببشرتها البيضاء الصافية، وملامحها التي تكاد تكون إيطالية، والأخرى باللون الأبيض المشُوبُ بالحُمرة المُميز لمقاطعتنا الريفية.

من الواضح أن المبالغ التي دُفِعَت للسيد ر. من أجل العناية بهيلين، كانت سخية للغاية، وكان الانطباع العام أنها يومًا ما سترث مبلغًا ضخمًا من المال من قريبها. لذا كان والدا راشيل لا ينفران من صداقة ابنتهم مع الفتاة، بل كانا حتى يشجعان تلك العلاقة الحميمة، بالرغم من أنهما الآن يندمان ندمًا مريرًا على سماحهما بذلك. لا تزال هيلين تحتفظ بولعها الغريب بالغابة، وصحبتها راشيل في عدة مرات، فكانت الصديقتان تخرجان منذ الصباح وتظلان في الغابة حتى الغَسَق.

مرة أو مرتان أحست السيدة م. أن ابنتها تتصرف بغرابة؛ بدت خاملة وغامضة، أو كما قامت السيدة بالتعبير "غريبة عن نفسها"، ولكن هذه التصرفات الغريبة بدت غير ذات بال فلم تُلاحظ. وذات مساء عادت راشيل إلى البيت، وسمعت أمها صوتًا يبدو كنحيبٍ يأتي من غرفة الفتاة، وباستطلاع الأمر وجدتْها أمها ترقد على السرير نصف عارية، وهي تبدو في محْنةٍ عظيمة. وبمجرد أن رأت أمها صرخت "آه يا أمي، لِمَ سمحتِ لي بالذهاب إلى الغابة مع هيلين؟" بدت السيدة م. مندهشةً من السؤال الغريب، وباستجواب الفتاة أخبرت راشيل أمها بقصة جامحة. قالت:

أغلق كلارك الكتاب بشكل حاد، وأدار الكرسي ناحية النار. عندما جلس صديقه ذات مساء على هذا الكرسي، وأخبر بقصته، قاطعه كلارك في مرحلة لاحقة لهذه، وطلب منه الكف عن الحديث في نوبة هلع:

- "يا إلهي!"

هكذا صرخ بقوة "فكر، فكر فيما تقوله، إنه عصيٌّ على

التصديق، بشعٌ للغاية، شيء مثل هذا لا يُمكن أن يحدث في هذا العالم الهادئ، حيث يعيش الرجال والنساء، ويُناضلون، ويغزون، وأحيانا يفشلون، ويُسيطر عليهم الحزن، والأسى والمُعاناة، ويُصيبهم سوء الحظ لسنوات عديدة؛ ولكن ليس هذا، يا فيليبس، لا يوجد شيء كهذا. لابد أن هناك تفسيرًا ما، مخرجًا ما من هذا الرعب. لماذا، يا إلهي، إن كانت مثل هذه الحالة محتملة، فإن كوكبنا سيصبح كابوسًا."

ولكن فيليبس أكمل حكايته حتى النهاية، وختم قائلاً:

"هروبها لا يزال لُغزًا حتى اليوم، لقد اختفت في وَضَحِ النهار؛ لقد رأوها تسير في المُرُوج، وبعد لحظات لم تكن هناك."

حاول كلارك استيعاب الأمر مرة أخرى، بينما هو يجلس بجوار النار، ومجددًا ارتجف عقله وانكمش للوراء، مرتعدًا أمام مرأى هذا العنصر المُخيف الذي لا يُمكن وصفه، مُتوَّجًا على عرشه، إن كان يُمكن قوْل ذلك، منتصرًا في هيئة بشرية. وأمام عينيه امتد طريقٌ ممهدٌ طويل في الغابة، كما وصفه صديقه له، ورأى الأوراق المتمايلة، والظلال المتراقصة على الأرض العشبية،

رأى ضوء الشمس والزهور، وبعيدًا، على مرمى البصر، رأى هيئة شخصان يقتربان منه، أحدهما راشيل، ولكن من الآخر؟

حاول كلارك جاهدًا ألا يُصدق كل هذا، ولكن في نهاية التقرير، كما خط بيده، كتب النقش التالي:

ET DIABOLUS INCARNATE EST.
.ET HOMO FACTUS EST [1]

(١) الشيطان يتجسد في هيئة إنسان. (المترجم)

٣

مدينة البعث

"هربرت! بحق السماء! هل هذا ممكن؟"

"نعم اسمي هربرت. أعتقد أن وجهك مألوف بالنسبة لي أيضًا، ولكنني لا أستطيع تذكر اسمك. ذاكرتي ضعيفة."

- ألا تتذكر فيليرز من وادام؟

- إذًا هكذا، أستميحك عذرًا، يا فيليرز، لم أعتقد أنني كنتُ أتسول من أحد أصدقاء الجامعة القدامى، طاب مساؤك.

- يا زميلي العزيز، لا داعي للتسرع، بيتي قريب من هنا، ولكننا لن نذهب إلى هناك الآن، دعنا نسير قليلاً في جادة شافتسبري، ولكن بحق السماء كيف وصلت إلى هذه الحالة يا هربرت؟

- إنها حكاية طويلة يا فيليرز، وغريبة أيضًا، ولكن يمكنني أن

أقصُّها عليك إن كنت تود سماعها.

- إذًا هيا بنا. فلتسمك ذراعي، فأنت لا تبدو بحالة جيدة.

سار الصديقان المتباينان في المظهر ببطءٍ عبر شارع روبرت؛ أحدهما قذرٌ، ملابسه مزرية، والآخر يرتدي ملابس رسمية، أنيق، حليق، ويبدو ثريًّا بشكل ملحوظ، كان فيليرز قد خرج للتو من المطعم بعد أن تناول وجبة عشاء فاخرة، مصحوبة بكأس من الخمر الإيطالي، وفي هذه الحالة العقلية غير المُتزنة، تأخر قليلاً على الباب، جائلاً بنظره في الشارع ذي الإضاءة الخافتة، بحثًا عن تلك الحوادث الغامضة والأشخاص التي تزخر بهم شوارع لندن في كل ميدان وكل ساعة.

يفخر فيليرز بكونه خبيرًا متمرسًا في استكشاف تلك المنعطفات والمتاهات الغامضة في حياة لندن، وفي هذا المسعى غير المربح أبدى جهدًا ملحوظًا يستحق المزيد من العمل الجاد. وهكذا وقف بجوار عمود الإنارة يمسح العابرين بنظره في فضولٍ واضحٍ، وبهذا الثقل الذي لا يعرفه إلا أصحاب العشاء المنتظم، مرت في ذهنه هذه الصيغة:

"يطلقون على لندن اسم مدينة المصادفات؛ إنها أكثر من ذلك، إنها مدينة البعث،" عندها قاطع أفكاره صوتَ نحيبٍ مُثير للشفقة، ورجل بائس يستجدي منه الصدقة. تلفت حوله في غيظ، وبصدمة مفاجئة وجد نفسه ينظر إلى الدليل المتجسد لرغبته في العثور على أمر غريب، فهناك بالقرب منه، وبوجهٍ شوهه الفقر والعار، وجسد يغطيه بالكاد ملابس قديمة ومهترئة، وقف صديقه القديم تشارلز هربرت، الذي التحق بالجامعة معه في نفس اليوم، والذي كان معه مرحًا وذكيًا لمدة اثنتي عشر ترمًا متلاحقين.فرقت الوظائف المختلفة والاهتمامات المتباينة بين صداقتهم، ستة أعوام مضت منذ آخر مرة رأي فيليرز فيها صديقه هربرت، والآن ها هو ينظر إلى حطام الرجل بأسى وحزن مختلط بفضولٍ شديدٍ حول أي سلسلة تعيسة من الظروف جذبت هذا الرجل إلى مثل هذا المنحنى الكئيب. أحسَّ فيليرز فضلاً عن الشفقة بسعادة الهاوي في الغوامض، وهنَّأ نفسه على تفكيره المتمهل خارج المطعم.

سَارَا في صمتٍ لبعض الوقت، والكثيرُ من المارة ينظُرون بتعجبٍ إلى هذا المشهد الغريب، لرجل متأنق يتعلق بيده من يبدو كشحاذٍ، وعندما انتبه فيليرز إلى ذلك، قاد صديقه إلى شارع ناءٍ في سوهو. وهنا كرَّر سؤاله مرة أخرى:

– كيف حدث هذا بحق السماء يا هربرت؟ لطالما اعتقدت أنك ستنجح في مركزٍ مرموقٍ في مقاطعة دورست، هل حرمَك والدك من الميراث؟ هل الأمر كذلك؟

– لا يا فيليرز، لقد حصلت على كل الممتلكات بعد وفاة والدي المسكين؛ فقد مات بعد عام واحد من تخرجي من أوكسفورد، لقد كان عطوفًا معي، وأنا أنعي وفاته مخلصًا بما يكفي. ولكن أنت تعرف حال الشباب الصغير؛ بعد أشهر قليلة قدمت إلى المدينة وانخرطت في المجتمع. بالطبع كان لدي ما يؤهلني لذلك بشكل ممتاز، واستطعت أن أستمتع بحياتي بكل وسيلة بريئة. قامرْت قليلاً بالتأكيد، ولكنني لم أغامر بمبالغ ضخمة، فالرهانات الصغيرة التي قمت بها في حلبات السباق جلبت إليّ ببعض المال، فقط بضع جنيهات، ما يكفي لشراء السجائر

وبعض المتعة، وبحلول الموسم التالي انتكست أموري. بالطبع سمعت عن زواجي؟"

- لا على الإطلاق! لم أسمع أي شيء عنه.

- نعم تزوجت يا فيليرز. لقد التقيت فتاةً ذات جمال خلاب وغريب، في بيت بعض المعارف. لا أستطيع أن أخبرك بعمرها، فأنا لم أعرفه أبـدًا، ولكن كما أستطيع أن أخمن، كانت في حوالي التاسعة عشر عندما التقيت بها. أصدقائي تعرفوا إليها في فلورانس، وأخبرتْهم أنها يتيمة، من أبٍ إنجليزي وأمٍّ إيطالية، وقد فتنتهم كما فتنتني. رأيتها للمرة الأولى في حفلة مسائية. كنت أقف على الباب أتحدث مع صديق، عندما ارتفع من بين الهمْهمات والتمْتمات للمحادثات المختلفة صوت هيَّج قلبي.

كانت تغني أغنية إيطالية. وتقدمت لخطبتها هذا المساء، وبعد ثلاثة أشهر تزوجت هيلين. هذه المرأة يا فيليرز- إن كان يمكنني أن أطلق عليها كلمة امرأة - لوَّثَت روحي. ليلة زواجنا وجدت نفسي في غرفة نومها في الفندق، أستمع إلى حديثها،

كانت تجلس على السرير، واستمعت إليها وهي تتحدث بصوتها الجميل، تتحدث عن أشياء حتى الآن لا أجرؤ على الحديث عنها في أحلك الليالي، بالرغم من أني تحملت ما لا يُحتمل. أنت يا فيليرز تعتقد أنك تفهم الحياة، ولندن، وتعرف ما يجري في النهار والليل في هذه المدينة المُخيفة.

ربما تكون سمعت عن أسوء الأشياء، ولكني أخبرك أنه لا فكرة لديك عما أعرف، ولا في أشنع كوابيسك يمكنك تخيل أدنى لمحة مما سمعت ... ورأيت. نعم، رأيت. لقد رأيت ما لا يُوصَف، مثل هذا الرعب الذي أجد نفسي أحيانًا أتوقف بمنتصف الشارع وأسأل إن كان من الممكن أن يرى الإنسان هذه الأشياء ويظل حيًا. طوال سنوات يا فيليرز كنت رجلاً محطمًا، في الجسد والروح ... في الجسد والروح."

- ولكن ماذا عن ممتلكاتك يا هربرت؟ أنت تمتلك أراضٍ في دورست.

- بعْت كل شيء؛ الحقول والغابات، منزلي القديم العزيز ... كل شيء.

– وماذا عن المال؟

– أخذته كله مني.

– وبعد ذلك تركتك؟

– نعم؛ اختفت ذات ليلة. لا أعرف أين ذهبت، ولكني واثق أنني إن رأيتها مرة أخرى فسأموت. بقية قصتي ليست ذات أهمية؛ معاناة بائسة؛ هذا كل شيء. قد تعتقد أنني أبالغ يا فيليرز وأن كلامي به الكثير من التهويل؛ ولكني لم أخبرك حتى بنصف ما أعرف. أستطيع أن أخبرك ببعض الأشياء التي ستقنعك، ولكنك لن تعيش يومًا سعيدًا مجددًا. ستقضي بقية حياتك كما أقضيها، رجل تطارده الأشباح، الرجل الذي رأى الجحيم.

أخذ فيليرز الرجل التعيس إلى بيته، وقدم إليه وجبة. أكل هربرت قليلاً وبالكاد لمس كأس النبيذ الموضوع أمامه. جلس كئيبًا وصامتًا أمام النار، وبدا عليه الارتياح عندما أهداه فيليرز بعض المال قبل أن يغادر.

قال فيليرز وهو يودعه على الباب:

– بالمناسبة يا هربرت ما اسم زوجتك؟ قلت إن اسمها هيلين على ما اعتقد؟ هيلين ماذا؟

– الاسم الذي كانت تحمله عندما التقيت بها كان هيلين فون، ولكن عن اسمها الحقيقي فلا أعرف. لا أعتقد حتى أن لها اسمًا. لا، لا، ليس على هذا الحال. فقط الكائن البشري يكون له اسم يا فيليرز؛ لا أستطيع أن أقول أكثر من هذا. إلى اللقاء؛ نعم لن أتردد في محادثتك إن احتجت مساعدك لي في شيء. طاب مساؤك.

سار الرجل مبتعدًا في الظلام القاتم، وعاد فيليرز إلى مقعده الدافئ بجوار النار. كان هناك شيء صادم بشأن هربرت لا يستطيع وصفه؛ ليس ملابسه المهترئة ولا علامات الفقر على وجهه، ولكن هذا الرعب المُبهم الذي يحيط به مثل الضباب. هو بنفسه اعترف أنه لا يخلو من اللوم، فالمرأة كما أقر قد أفسدته جسدًا وروحًا، وأحس فيليرز أن هذا الرجل الذي كان يومًا صديقه، مجرد ممثل في مشاهد شريرة تعجز الكلمات عن التعبير عنها. قصته لا تحتاج أي اثبات، هو نفسه دليل مجسد

عليها.

أمعن فيليرز الفكّر في القصة التي سمعها بفضول، وفكَّر إن كان قد سمع القصة من بدياتها لنهايتها..

"لا ليس بالتأكيد ليست النهاية، ربما أكون قد سمعت البداية. هذه القضية مثل علبة الصناديق الصينية[1]، كلما فتحت صندوقًا وجدت آخر. في الغالب المسكين هربرت مجرد واحد من الصناديق الخارجية؛ وهناك صناديق أغرب لاحقة."

لم يستطع فيليرز أن يبعد تفكيره عن هربرت وحكايته، والتي ازدادت غرابة كلما توغل الليل. بدأت النار تخمد، والهواء البارد للصباح يتسلل إلى الغرفة؛ نهض فيليرز وهو ينظر وراء كتفه، وبينما هو يرتجف قليلاً، توجه إلى الفراش.

بعد بضعة أيام التقى في النادي بواحد من معارفه يدعى أوستين والذي كان مشهورًا بمعرفته الوثيقة بالحياة في لندن، في مراحلها المظلمة والمشرقة. وبينما لا يزال فيليرز متأثرًا

---

(١) الصناديق الصينية: هي مجموعة الصناديق متباينة الأحجام، يوضع كل صندوق بداخل الآخر الأكبر منه. (المترجم)

بالمصادفة التي حدثت في سوهو وما تلاها، فكر أن أوستين قد يلقي بعض الضوء على تاريخ هربرت، وبعد تبادل بعض الحوار التقليدي سأله فجأة:

– هل تعرف أي شيء عن رجل يدعى هربرت ـ تشارلز هربرت؟

استدار أوستين بحدة وحملق في فيليرز بدهشة.

– تشارلز هربرت؟ ألم تكن في المدينة منذ ثلاث سنوات؟ لا؛ إذًا فأنت لم تسمع بقضية شارع پاول؟ لقد سببت الكثير من التوتر في ذلك الوقت.

– ما القضية؟

– حسنا، سيد محترم، رجل ذو منصب مرموق، عثر عليه ميتًا ميتة قاسية، بباحة أحد البيوت في شارع پاول المتفرع من طريق محكمة توتنهام. بالطبع لم تكتشف الشرطة الأمر؛ إن حدث وكنت مستيقظًا طوال الليل والضوء يبدو مضاءً من نافذتك فإن الشرطي سيقرع الجرس، ولكن إن حدث وكنت ترقد ميتًا في باحة منزل أحدهم، فسيتم تركك لحالك. في

هذه الحالة ـ كما يحدث في الكثير من الحالات ـ فإن جرس الإنذار تم قرعه بواسطة شخص متجول، لا أعني مجرد متشرد أو شخص عاطل، بل سيد محترم، والذي جعله عمله أو متعته أو كليهما يتجول في شوارع لندن الساعة الخامسة صباحًا.

هذا الشخص كان ـ كما قال ـ متوجهًا إلى بيته، لا يتضح من أين آتي وإلى أين ذاهب، وصادف أن سار في شارع پاول ما بين الرابعة والخامسة صباحًا، وشيء ما لفت انتباهه عند المنزل رقم ٢٠ وقال ـ يا للسخف ـ إن البيت له أكثر هالة مُقبضة يشعر بها على الإطلاق، ولكنه على أية حال ألقى نظرة على الباحة واندهش كثيرًا عندما رأى رجلاً راقدًا بين الصخور، وقد تشابكت كل أطرافه، ووجه منقلبًا لأعلى.

اعتقد السيد المحترم أن وجهه يبدو مروعًا بشكل غريب، وأسرع راكضًا للبحث عن أقرب شرطي. وكان الشرطي يميل في البداية لمعالجة الأمر برفق، معتقدًا أنها حالة سكر معتادة. إلا أنه بعدما جاء وألقى نظرة على وجه الرجل، تغيرت لهجته بسرعة. وعلى الفور أرسل الرجل الذي عثر على الجثة

كي يستدعي طبيبًا، وقام الشرطي بقرع باب البيت حتى أتت خادمة تعيسة لترى ما الأمر وهي شبه نائمة. أشار الشرطي ناحية المنطقة المعينة للخادمة والتي صرخت بصوتٍ عالٍ أيقظ الشارع كله، ولكنها لم تعرف شيئًا عن الرجل، لم تره من قبل في المنزل، وهكذا.

وفي تلك الأثناء عاد الرجل صاحب الاكتشاف مع الطبيب، وكان عليهم بعد ذلك الدخول إلى الباحة. البوابة كانت مفتوحة، لذا أسرع أربعتهم في هبوط درجات السلم. بالكاد احتاج الطبيب إلى دقيقة واحدة من الفحص، وقال إن الرجل المسكين ميت منذ عدة ساعات، وبعد ذلك أصبحت القضية أكثر إثارة، فالرجل الميت لم يسرق، وفي جيبه عُثر على عدة أوراق تحدد شخصيته، كان رجلاً من عائلة كبيرة وشخصية مرموقة في المجتمع، لا يوجد له أي أعداء، بحسب ما نعرف. لن أخبرك باسمه يا فيليرز لأنه لا يضيف شيئًا إلى الحكاية، ولأنه ليس من الجيد الخوض في أمور الموتى عندما لا يكون لهم أقارب أحياء.

النقطة الثانية المثيرة للاهتمام هي أن الطبيب لم يستطع تحديد سبب الوفاة. كانت هناك بعض الكدمات الخفيفة على كتفيه، ولكنها كانت بسيطة للغاية حتى أنها تبدو كما لو أن تم دفعه للسقوط في المطبخ، لا أن يُلقى من فوق سور في الشارع أو حتى يُجَر على درجات السلم. ولكن لم يكن هناك بالتأكيد أي دلائل أخرى على العنف في جسده، بالتأكيد لا شيء قد يُعزى إليه سبب وفاته؛ وعندما تم تشريح الجثة لم يعثر على أي أثر للسموم من أي نوع. بالطبع أصبحت الشرطة مهتمة بمعرفة كل شيء عن قاطني البيت رقم ٢٠، والآن يظهر مرة أخرى - بحسب ما سمعته من مصادر خاصة - نقطة أو نقطتين مثيرتان للاهتمام.

من الواضح أن قاطني البيت هما السيد والسيدة تشارلز هربرت؛ وكان يُقال إنه مالك أراضي بالرغم أنه من المعروف أن شارع پاول ليس مكانًا لسكن الطبقة العليا من أصحاب الأراضي. أما عن السيدة هربرت، فقد بدا أنه لا أحد يعرف من أو ماذا تكون، وبيني وبينك أتخيل أن من حاولوا الغوص في

تاريخها قد وجدوا أنفسهم في مياه غريبة. بالتأكيد كليهما نفيا معرفتهما بأي شيء عن المتوفى، وفي غياب أي دليل ضدهما فقد تم إطلاق سراحهما.

ولكن جدت بعض الأمور حولهما، بالرغم من أن الساعة كانت بين الخامسة والسادسة عندما تمت إزالة جثة المتوفى، إلا أن جمعًا كبيرًا من الناس تجمهروا أمام البيت، العديد من الجيران أتوا لمعرفة ما يحدث. وقد أخذوا حريتهم في التعليق على الأمر، بكل الاعتبارات، ومن خلال هذا تبين أن المنزل رقم ٢٠ كانت له رائحة سيئة غريبة.

وحاول المحققون تتبع هذه الشائعات إلى قاعدة راسخة من الحقائق، ولكنهم لم يضعوا يدهم على أي شيء. هز الناس أيديهم ورفعوا حواجبهم وفكروا أن آل هربرت غرباء الأطوار حقًا، ومن الأفضل ألا تُرى ذاهبًا إلى بيتهم، وهكذا، ولكن لم يكن هناك شيء ملموس. المختصين كانوا متأكدين أن الرجل لقي حتفه بطريقة ما أو بأخرى في البيت وتم إلقائه من باب المطبخ، ولكنهم لم يستطيعوا إثبات الأمر، وغياب أي دليل على

العنف أو التسمم تركهم بلا حيلة. قضية غريبة، أليس كذلك؟

ولكن أغرب ما في الأمر، هو شيء لم أخبرك به بعد. فقد صادف أنني أعرف واحدًا من الأطباء الذين تم الاستعانة بهم لمعرفة سبب الوفاة، وقد التقيت به وسألته عن الأمر "هل تعني حقًا ما تقوله؟ أنك تحيرت في هذه القضية ولم تعرف بالتأكيد كيف مات الرجل؟" فأجابني" المعذرة، أنا أعرف بشكل كامل السبب الذي أدى إلى الموت. فلان مات من الخوف، من رعبٍ شنيعٍ مطلق؛ لم أر من قبل ملامح ملتوية بهذا الشكل البشع طوال مسيرتي العملية، وأنا رأيت العديد من وجوه الموتى." الطبيب كان شخصًا هادئًا في المعتاد، لذا صدمتني هذه الحدة في تصرفاته، ولم أستطع معرفة المزيد منه. أعتقد أن المسئولين لم يجدوا طريقة لمقاضاة آل هربرت بدعوى إخافة الرجل حتى الموت؛ على أي حال، لم يحدث شيئًا، وتناسى الناس القضية. هل صادف أنك تعرف شيئا عن هربرت هذا؟

- حسنًا" أجاب فيليرز "لقد كان واحدًا من زملائي القدامى في الكلية.

– الأمر هكذا حقًا؟ هل رأيت زوجته من قبل؟

– لا، لم أرها. فعيني لم تقع على هربرت منذ عدة سنوات.

– ألا ترى أنه أمر غريب؟ أن تلتقي برجل على بوابات الجامعة أو في محطة بدنتاجون، ولا تسمع شيئًا عنه لعدة سنوات، وفجأة يخطر على بالك في مثل هذا المكان الغريب. ولكني كنت أتمنى لو التقيت بالسيدة هربرت؛ فالناس يقولون أشياء استثنائية عنها.

– أي نوع من الأشياء؟

– حسنًا، لا أكاد أعرف كيف أخبرك. كل من رآها في تحقيقات الشرطة قال إنها من بين كل النساء الأكثر جمالاً والأكثر إثارة للنفور. لقد تحدثت إلى رجلٍ رآها، وأؤكد لك أنه ارتجف وهو يحاول وصف المرأة، ولم يعرف لماذا! يبدو أنه كان هناك لغزًا يحيط بها؛ وأتوقع أن هذا الرجل الميت لو عاد إلى الحياة مرة أخرى، لأخبرنا بأكثر الحكايات غرابة. وأيضًا كان هناك لغز آخر؛ ما الذي يفعله سيد محترم مرموق مثل السيد فلان (سندعوه هكذا إن كنت لا تمانع) في منزل غريب مثل المنزل

رقم ٢٠؟ القضية كلها غامضة ومحيرة، أليس كذلك؟

- إنها كذلك حقًا يا أوستين. لم أتوقع عندما سألتك عن صديقي القديم، أنني سأقع على مثل هذا الأمر الغريب. حسنًا، يجب أن أذهب؛ طاب نهارك.

ذهب فيليرز في طريقه، مفكرًا في نظريته الخاصة عن الصناديق الصينية؛ كان يوجد صندوق غريب هنا بالفعل.

٤

الاكتشاف في شارع باول

بعد مرور عدة أشهر من لقاء فيليرز بهربرت، كان السيد كلارك جالسًا كعادته بجوار المدفأة بعد تناول وجبة العشاء، مانعًا أفكاره بحزم من الذهاب ناحية المكتب. واستطاع إبعاد نفسه بنجاح عن "المذكرات" لأكثر من أسبوع، وراوده الأمل أنه سيستطيع إعادة تأهيل نفسه، إلا أنه بالرغم من مساعيه التي يبذلها، لم يستطع تهدئة التعجب والفضول الغريب الذي أثارته في داخله القضية التي كتبها مؤخرًا.

لقد استطاع صياغة القضية، أو بالأحرى الخطوط العريضة لها، مستعينًا بأحد الأصدقاء المختصين، والذي هزّ رأسه وظنّ أن كلارك أصبح غريبًا، وفي هذا المساء كان كلارك

يحاول البحث عن تفسير منطقيّ لهذه الحكاية، عندما سمع طرقًا على الباب أيقظه من تأملاته.

– السيد فيليرز هنا لرؤيتك يا سيدي.

– يا إلهي! فيليرز، لقد كان من كرم أخلاقك أن تأتي إليّ، أنا لم أرك منذ عدة أشهر، أعتقد أنها قاربت على السنة. تعال، تفضل، وكيف حالك يا فيليرز؟ هل تريد استشارتي في أحد الاستثمارات؟

– لا، أشكرك، أعتقد أن كل استثماراتي في وضع آمن. في الحقيقة يا كلارك لقد أتيت لاستشارتك في أمر غريب لفت نظري مؤخرًا. وأخشى أنك ستظن أن الأمر سخيفٌ عندما أخبرك به، وأنا نفسي أحيانًا ما أعتقد أنه كذلك، وهذا ما حسم أمري كي آتي إليك، فأنا أعرف أنك رجل عملي.

لم يكن لدى السيد فيليرز معرفة بـ "مذكرات إثبات وجود الشيطان.

– يسعدني يا فيليرز أن أقدم لك المشورة في هذا الأمر بقدر

استطاعتي. ما هي طبيعة القضية؟"

– إنه أمر استثنائي بمعنى الكلمة، أنت تعرف طباعي؛ دائما ما أبقى يقظًا في الشوارع، وأحيانا ما أصادف بعض الأشخاص غرباء الأطـوار، وبعض القضايا الغريبة أيضًا، ولكن هذه القضية أعتقد أنها تتفوق عليهم جميعًا. منذ حوالي ثلاثة أشهر خرجت من المطعم في واحدة من ليالي الشتاء القارصة؛ بعد تناول وجبة عشاء دسمة وزجاجة خمر إيطالي فاخرة، وكنت واقفًا في تلك اللحظة على الرصيف، أفكر في الغرابة المخيمة على شوارع لندن، والرفقاء الذين يمرون عبرها.

زجاجة من النبيذ الأحمر تحفز هذه الأفكار يا كلارك، ولكن تم مقاطعة أفكاري من قبل شحاذ جاء من ورائي، وكان يتسوّل بشكل معتاد. بالطبع التفتّ لأجد أن هذا الشحاذ هو صديق قديم لي، رجل اسمه هربرت. سألته كيف وصل إلى هذه الحالة البائسة، وحكى لي حكايته. وسرنا سويًّا في واحد من شوارع سوهو الطويلة المظلمة، وهناك استمعت لقصته. قال لي إنه تزوج من فتاة جميلة، أصغر منه ببضعة أعوام ـ وكما وصف لي

فقد أفسدت جسده وروحه.

لم يخبرنِ بالتفاصيل، قال إنه لا يجرؤ على ذلك، ما رآه وسمعه طارده كالأشباح في الليل والنهار، وعندما تأملت وجهه عرفت أنه يقول الحقيقة. كان هناك شيئًا به أثار رجْفتي. لا أعرف لماذا، ولكني أحسسْت به. أعطيته بعض المال وودعته، وأؤكد لك أنه بمجرد مغادرته كنت أجاهد من أجل التقاط أنفاسي. بدا أن حضوره يجمد الدماء في عروق الإنسان.

– ألا تتوهم الأمر يا فيليرز؟ ما أفترضه أن هذا المسكين قد وقع في زواج طائش، وكما يقال انحدر من سيئ إلى أسوء.

قال فيليرز:

– إذا فلتستمع إلى هذا.

وبدأ يروي الحكاية التي سمعها من أوستين.

ثم ختم قصته قائلاً: "فكما تري، فإن هذا السيد فلان أو أيًا كان، مات من رعب مطلق، لقد رأى شيئًا مريعًا، مرعبًا للغاية، قضى على حياته. وما رآه فقد رآه في هذا البيت، الذي أصبح

ذا سمعة سيئة في الحي. لقد انتابني الفضول أن أذهب وألقي نظرة على هذا المكان بنفسي. إنه شارع كئيب، والمنازل به قديمة بما يكفي لتصبح منفرة وكئيبة، ولكن ليس بما يكفي لتصبح غريبة. وجميع المنازل مؤجرة مفروشة وغير مفروشة، وكل باب عليه ثلاثة أجراس. وتم تحويل بعض الطوابق الأرضية هنا وهناك إلى محال من النوع الشائع.

إنه شارع كئيب في كل شيء. وجدت أن البيت رقم ٢٠ معروضًا للإيجار، وذهبت إلى السمسار وحصلت على المفتاح. بالطبع لم أسمع شيئًا عن آل هربرت في هذا الحي، ولكني سألت الرجل بمنتهى الصراحة، منذ متى تركا هذا البيت وهل كان هناك مستأجرين آخرين في تلك الأثناء. نظر إلى الرجل بتوجس لمدة دقيقة ثم أخبرني أن آل هربرت تركا البيت مباشرةً بعد الحادث المأساوي ـ كما أطلق عليه ـ وطوال هذا الوقت كان البيت مهجورًا.

صمت السيد فيليرز لعدة لحظات.

– لطالما كنت مُولعًا بالتجوال في المنازل المهجورة، هناك

شيء جذاب نوعًا ما في الغرف الفارغة المهجورة، والمسامير المدقوقة في الجدران، والغبار الكثيف على حواف النوافذ. ولكنني لم أستمتع بالتجول في المنزل رقم ٢٠ بشارع پاول. بمجرد أن وطئت قدمي في الرواق حتى أحسست بشيء ثقيل غريب يخيم على هواء البيت. بالطبع كل المنازل المهجورة خانقة كما تعرف، ولكن هذا كان شيئًا مختلفًا تمامًا، لا أستطيع أن أصفه لك، ولكني أحسست أنه يجثم على صدري.

ذهبت إلى الغرفة الأمامية والخلفية، وهبطت الدرج إلى المطابخ بالأسفل؛ بالطبع كان الغبار والقذارة في كل مكان، كما تتوقع، ولكن كان هناك شيء غريب، شيء لا أستطيع تحديده لك، أنا فقط شعرت بالغرابة. ولكن الإحساس الأسوأ كان بأحد الغرف في الطابق الأول. كانت غرفة واسعة نوعًا ما، ولا شك أن ورق الحائط كان مبهجًا في يوم من الأيام، ولكن عندما رأيت الطلاء والورق وكل شيء أحسست بالكآبة.

الغرفة كانت مليئة بالرعب، وعندما وضعت يدي على الباب أحسست بأسناني تصطك ببعضها البعض، وعندما دخلت

الغرفة كدت أن أسقط على الأرض غائبًا عن الوعي. ومع ذلك تمالكت نفسي، ووقفت أمام الحائط بنهاية الغرفة، متعجبًا ما الذي في هذه الغرفة - بحق السماء- يجعل أطرافي ترتعش وقلبي يخفق كما لو كنت على وشك الموت.

وبإحدى الأركان كانت هناك كومة من الجرائد مبعثرة على الأرض، فبدأت في تفحصها، كانت جرائد منذ ثلاثة أو أربعة أعوام، بعضها نصف ممزق، وبعضها منكمشًا كما لو كانت قد استخدمت في التغليف. أخذت أقلب في الجرائد وعثرت بينهم على رسم غريب؛ سأُريه لك الآن. ولكنني لم أستطع البقاء في الغرفة؛ أحسست أنها تجتاحني. وأحسست بالامتنان لخروجي آمنًا وسليمًا، في الهواء الطلق.

حملق الناس ناحيتي وأنا أسير عبر الشارع، وأحدهم قال إنني كنت مخمورًا. كنت أترنح وأنا أسير فوق الرصيف من جانب لآخر، وأقصى ما استطعت فعله هو أن أعيد المفتاح إلى السمسار وأعود إلى البيت. رقدت في السرير لمدة أسبوع أعاني مما وصفه الدكتور بالصدمة العصبية والإرهاق الشديد.

في أحد الأيام كنت أقرأ الصحيفة المسائية عندما لاحظت مقالاً عنوانه "الموت جوعًا" لم يكن أمرًا معتادًا؛ نُزُلٌ مثالي في مارليبون، وبابٌ مغلق لمدة عدة أيام، ورجل ميت على كرسيه عثر عليه عندما تم اقتحام الغرفة المرحوم كما يقول المقال يعرف باسم تشارلز هربرت، ويعتقد أنه كان رجلاً من النبلاء أصحاب الأرض. وارتبط اسمه منذ ثلاثة سنوات بحادثة قتل غامضة في شارع پاول المتقاطع من طريق محكمة توتنهام، وكان المتوفى هو مستأجر البيت رقم ٢٠ حيث عثر في باحته على جثة رجل محترم ذو منصب مرموق ميتًا في ظروف غامضة لا تخلو من الشك نهاية مأساوية أليس كذلك؟ ولكن على كل حال، لو كان ما أخبرني به حقيقي. وأنا متأكد أنه كذلك. فإن حياة الرجل كانت مأساوية، ومأساة أغرب مما يتحاكى به الناس.

قال كلارك متأملاً

- هذه هي كل الحكاية، أليس كذلك؟

- نعم، هذه هي كل الحكاية.

– حسنا يا فيليرز، لا أعرف حقًا ما يمكن قوله عن هذا الأمر. هناك بلا شك ملابسات غامضة في هذه الحكاية، على سبيل المثال العثور على الرجل الميت في باحة منزل هربرت، ورأي الأطباء الغريب حول سبب الوفاة؛ ولكن الأمور على كل حال يمكن تفسيرها بشكل مباشر. بالنسبة لما شعرت به عندما ذهبت للبيت، فأخمن أن هذا ناتج عن مخيلة حية؛ لا شك أنك أطلت الفكر بشكل شبه واعٍ فيما سمعت، لا أرى ما يمكن قوله أو فعله أكثر من هذا في هذه المسألة، ولكن هربرت ميت؛ فأين تقترح أن علينا البحث؟

– أقترح البحث عن المرأة؛ المرأة التي تزوجها، إنها لغز في حد ذاته.

جلس الرجلان صامتين بجوار المدفأة؛ وكلارك يهنئ نفسه بنجاحه في الحفاظ على شخصية المدافع عن المألوف، فيما غرق فيليرز في أفكاره القاتمة.

– أعتقد أنني سأقوم بتدخين سيجارة.

هكذا تكلم أخيراً وهو يتحسس جيبه للبحث عن علبة السجائر.

ثم قال فجأة بتمهل:

– هناك شيئًا نسيت أن أريك إياه. هل تتذكر عندما أخبرتك عن الرسم الغريب الذي عثرت عليه في كومة الجرائد في المنزل بشارع پاول؟ ها هو ذا.

أخرج فيليرز من جيبه ظرفًا بني اللون مربوطًا بخيط بإحكام شديد. أحس كلارك رغمًا عنه بالفضول؛ وانحنى للأمام على كرسيه بينما فيليرز يفك الخيط بصعوبة، وبداخله كان يوجد مجموعة من المناديل، أزالها فيليرز وهو يخرج قطعة صغيرة من الورق أعطاها لكلارك بدون أن يتكلم.

ساد صمت مطبق على الغرفة لمدة خمس دقائق أو أكثر؛ جلس الرجلان صامتين حتى أنه يمكنهما سماع تكات الساعة الطويلة ذات الطراز القديم الموضوعة بالخارج في البهو، وفي عقل واحد منهما أيقظ الصوت الرتيب ذكرى بعيدة، بعيدة للغاية.

كان ينظر باهتمام شديد إلى وجه المرأة المرسوم بالقلم والحبر؛ من الواضح أنه مرسوم بعناية فائقة، بواسطة فنان حقيقي، حتى أنه ليرى روح المرأة تطل من عينيها، وشفتيها

منفرجتان بابتسامة غريبة. مازال كلارك يحدق في الوجه، لقد أيقظ في عقله ذكرى مساء يوم صيفي، منذ زمن بعيد، عندما كان ينظر إلى الوادي الجميل، والنهر يتعرج بين التلال، المروج وحقول الذرة، الشمس الحمراء الباهتة، والضباب الأبيض البارد يرتفع من الماء. سمع صوتًا يتحدث إليه من على بعد سنوات طويلة قائلاً:

"كلارك، اليوم ماري سوف ترى الإله بان!"

وبعدها كان يقف بجوار الدكتور يستمع إلى صوت تكات الساعة، ينتظر ويتأمل الجسد الراقد على الكرسي الأخضر أسفل ضوء المصباح. ماري تعتدل بينما هو ينظر في عينيها، وبرودة شديدة تعتري قلبه.

– من هي هذه المرأة؟

تكلم أخيرًا، وكانت صوته جافًّا وأجشًّا.

– إنها المرأة التي تزوجها هربرت.

نظر كلارك مجددًا إلى الرسمة؛ لم تكن ماري على كل حال.

كان هناك تشابه بين وجهها ووجه ماري، ولكن كان هناك شيء آخر، شيء لم يره في ملامح ماري عندما خطت داخل المعمل في رداءها الأبيض مع الدكتور، ولا حتى عند استيقاظها المرعب، ولا حتى وهي ترقد مبتسمة على السرير. أيا كان هذا الشيء، النظرة التي تخرج من عينيها، الابتسامة على شفتيها، التعبير المرتسم على وجهها، فإن كلارك ارتجف أمامه حتى أعماق روحه، وتذكر دون وعي كلمات دكتور فيليب عندما قال إنه "لم يتلق من قبل مثل هذا الإحساس الواضح بوجود شر شديد" أدار الورقة بتلقائية في يده لينظر إلى ظهرها.

– بحق السماء، كلارك ما الأمر؟ أنت تبدو شاحبًا كالأموات.

قفز فيليرز من كرسيه، بينما كلارك يسقط للخلف بتأوه والورقة تسقط من يده.

– أنا لست على ما يرام يا فيليرز، فأنا عرضة لمثل تلك النوبات. صب لي كأسًا من النبيذ؛ شكرًا لك، هذا سيفي بالغرض. سأشعر بتحسن خلال بضعة دقائق.

التقط فيليرز الرسمة الواقعة على الأرض وقلبها كما فعل

كلارك.

– هل رأيت ذلك؟ هكذا استطعت تحديد كون الرسمة لزوجة هربرت، أو بالأصح أرملته. كيف تشعر الآن؟

"أفضل حالاً شكرا لك، لقد كانت نوبة إغماء عابرة. لا أعتقد أنني فهمت مقصدك. كيف استطعت تحديد هوية صاحبة الصورة؟

– هذه الكلمة هيلين كانت مكتوبة على الظهر. ألم أخبرك أن اسمها هيلين؟ نعم، هيلين فون.

تأوه كلارك، لم يعد هناك مجال للشك.

قال فيليرز:

– الآن ألا تتفق معي أن القصة التي أخبرتك بها الليلة، والدور الذي تلعبه هذه المرأة، يحمل بداخله بعض النقاط الغريبة للغاية؟

تمتم كلارك:

– نعم يا فيليرز، إنها قصة غريبة، قصة غريبة حقًا. يجب أن

تمهلني بعض الوقت لأفكر فيها. قد أستطيع مساعدتك، وقد لا أستطيع. هل عليك الذهاب الآن؟ إذاً طاب مساءك يا فيليرز. تعال مرة أخرى لرؤيتي خلال أسبوع.

٥

خطاب النصيحة

– هل تعرف يا أوستين ....

قال فيليرز بينما يسير الصديقان في طريق بيكادلي ذات صباح مبهج من شهر مايو

– هل تعرف أنا مقتنع أن ما أخبرتني به عن شارع پاول وعن هربرت هو مجرد حلقة في حكاية غريبة؟ وسأعترف لك أنني عندما سألتك عن هربرت منذ عدت أشهر كنت قد رأيته للتو.

– رأيته؟ أين؟

– كان يتسول مني في الشارع بالمساء. لقد كان في حالة مزرية، ولكنني تعرفت عليه، وجعلته يخبرني بحكايته، أو على الأقل الخطوط العريضة منها، باختصار، لقد تم تدميره من قبل

زوجته.

- بأي طريقة؟

- لم يخبرني؛ قال فقط إنها قد دمرته تمامًا، جسدًا وروحًا. الرجل ميت الآن.

- وماذا حدث بشأن زوجته؟

- آه، هذا ما أتمنى أن أعرفه، وأنا مصر على إيجادها عاجلاً أو آجلاً. أنا أعرف رجلاً يدعى كلارك، صديق جاف، في الواقع هو رجل أعمال، ولكنه داهية. لا أقصد أنه داهية بالمعنى الحرفي للكلمة، ولكنه رجل فطِن في أمور الحياة. حسنًا، قمت بعرض القضية عليه، وكان متأثرًا بشكل واضح. قال إن الأمر يحتاج إعادة نظر، وطلب مني أن أوافيه بعد أسبوع، وبعد مرور عدة أيام تلقيت منه خطابًا استثنائيًّا.

أخذ أوستين المظروف، وأخرج منه الخطاب، وقرأه بفضول. وقد جاء كالآتي:

"عزيزي فيليرز، لقد فكرت في المسألة التي استشرتني

بشأنها في تلك الليلة. ونصيحتي إليك كالآتي. ألقِ الرسمة في النار. امحُ القصة من عقلك. ولا تفكر بها مرة أخرى يا فيليرز، وإلا ستندم. لا شك أنك خمنت أنني أمتلك بعض المعلومات السرية، وهذا صحيح إلى حد ما. ولكنني أعرف القليل؛ أنا مثل العابر الذي ألقى نظرة على الهاوية، ثم تراجع في رعب. ما أعرفه غريبٌ للغاية، ومُخيفٌ للغاية، ولكن وراء ما أعرفه أعماق وأهوال أكثر رعبًا من ذلك، أغرب من أي حكاية تُحكى في ليالي الشتاء حول النار. أنا مصمم - ولا شيء يمكنه أن يجعلني أتراجع عن تصميمي - ألا أستكشف مقدار ذرة أكثر من ذلك، وإن كنت تقدر سعادتك، فستعقد نفس العزم.

تعال لزيارتي متى شئت، ولكننا سنتحدث في مواضيع أكثر بهجة من هذا.

طوى أوستين الخطاب، وأعاده إلى فيليرز وهو يقول:

- إنه خطاب مثير للاهتمام بالتأكيد، ما الذي كان يعنيه بالرسمة؟

- آه! نسيت أن أخبرك أنني ذهبت إلى شارع پاول واكتشفت

شيئًا هناك.

وقص فيليرز الحكاية كما قصها على كلارك، وأوستين يستمع في صمت، وقد بدا متحيرًا.

– كم غريب هو هذا الشعور البغيض الذي راودك في الغرفة! من الممكن أن يكون مجرد ضرب من الخيال؛ شعور بالنفور، باختصار.

– لا لقد كان أمرًا ماديًا أكثر منه عقليًا. لقد كان كما لو كنت أستنشق مع كل نفس دخانًا مميتًا يتسلل إلى كل عصب ووتر وعظمة في جسدي. أحسست أنه يعصف بي من رأسي حتى أخمص قدمي، وأخذ نظري يخفت، كما لو كنت على مشارف الموت.

– نعم، نعم! غريب للغاية بالتأكيد. كما ترى، صديقك اعترف أن هناك حكاية كئيبة مرتبطة بهذه المرأة. هل لاحظت أي شعور معين عليه عندما كان يخبرك بالحكاية؟

– نعم، لاحظت أنه أصيب بالدوار، ولكنه أكد لي أنها مجرد نوبة

عابرة يعاني منها.

– وهل صدقته؟

– لقد صدقته حينها، ولكنني الآن لا أعرف. لقد كان يسمع ما أحكيه بلا اكتراث، حتى أريته الرسمة. لقد أصيب حينها بالنوبة التي أخبرتك عنها. لقد بدا مروعًا أؤكد لك.

– من المؤكد أنه رأى هذه المرأة من قبل. ولكن قد يكون هناك تفسير آخر؛ قد يكون الاسم، وليس الوجه، الذي كان مألوفًا له. ماذا تعتقد؟

– لا أعرف على وجه الدقة، حسب ما أذكر فقد كاد أن يسقط من على كرسيه عندما أدار الرسمة، فالاسم كما تعرف مكتوب على الظهر.

– هكذا إذن؛ وعلى كل حال فمن الصعب أن تصل إلى حسم في مثل تلك القضية. أنا أكره الميلودراما، ولا شيء يزعجني أكثر من قصة أشباح مبتذلة ومضجرة؛ ولكن بالفعل يا فيليرز يبدو أن هناك شيء مريب للغاية وراء كل هذا.

انعطف الرجلان بدون أن يشعرا إلى شارع أشلي، متجهين شمالاً عبر طريق بيكادلي. لقد كان شارعًا طويلاً وكئيبًا، ولكن كان يخفف من كآبته بين الحين والآخر بعض المنازل التي زينها ذوق مرهف بالورود والستائر الزاهية، والطلاء المبهج على الأبواب. وحينما توقف أوستين عن الكلام، نظر فيليرز إلى واحد من تلك المنازل، وهو يتأمل الزهور المتدلية من الشرفات حمراء وبيضاء، والستائر بلون النرجس البري تغطي النوافذ، وقال:

– تبدو مبهجة، أليس كذلك؟

– نعم، وبالداخل أكثر بهجة. واحد من أجمل البيوت في الحي، هكذا سمعت. فأنا لم أكن هناك بنفسي، ولكني التقيت بعدة أشخاص كانوا هناك، وجميعهم أخبروني أنه مبهج بشكل غير اعتيادي.

– بيت من هذا؟

– بيت السيدة بومونت.

– ومن تكون؟

– لا أعرف على وجه التأكيد، سمعت أنها قدمت من أمريكا الجنوبية، ولكن على أية حال، من تكون هو أمر ليس ذا أهمية كبيرة. إنها امرأة ثرية للغاية، لا شك في ذلك، وقد صادقت بعض الرجال المرموقين. سمعت أن لديها أجود أنواع الخمر الفرنسي، نبيذ رائع للغاية، والذي كلفها بالتأكيد مبالغ طائلة. اللورد أرجنتين أخبرني عنه، لقد كان هناك مساء الأحد الماضي. وأكد لي أنه لم يذق من قبل نبيذًا مثل هذا، وأرجنتين ـ كما تعرف ـ خبير في ذلك. بالمناسبة هذا يذكرني بشيء، لا شك أنها امرأة غريبة الأطوار.

فعندما سأل أرجنتين هذه السيدة بومونت عن عمر هذا النبيذ، ماذا تعتقد أنها قالت؟ حوالي ألف عام على ما أعتقد ظن اللورد أرجنتين أنها تمازحه، لكنها أخبرته عندما ضحك أنها جادة تمامًا، وعرضت عليه أن تريه الزجاجة. بالطبع لم يستطع قول شيء بعد ذلك؛ ألا أن هذا يبدو قديمًا أكثر من اللازم بالنسبة لشراب، أليس كذلك؟ لقد وصلنا إلى بيتي. تفضل، ألن تدخل؟

– شكرًا لك، أعتقد أنني سأفعل، فأنا لم أر بيت العجائب هذا منذ فترة طويلة.

كانت الغرفة مفروشة بوفرة، ولكن بغرابة، حيث أن كل إناء ومكتبة ومنضدة، وكل سجادة وزجاجة وحلية تبدو شيئًا مستقلاً، محافظًا على فرديته الخاصة.

قال فيليرز بعد فترة:

– هل هناك أي شيء جديد حدثَ مؤخرًا؟

– لا، لا أعتقد! لقد رأيت تلك السجاجيد الغريبة من قبل، أليس كذلك؟ خمنت ذلك. فأنا لا أعتقد أني قابلتُ أي شيء غريب الأسابيع الماضية.

مسح اوستين الغرفة بنظره من خزانة إلى خزانة، ومن رف إلى رف، باحثًا عن أي شيء غريب جديد. وقع نظره أخيرًا على صندوق غريب، منحوت بشكل جميل وجذاب، موضوعًا في الركن المظلم للغرفة.

– آه. كدت أنسي، لقد عثرت على شيء لأُريك إياه.

فتح أوستين الصندوق، وأخرج منه كتابًا ضخمًا، ووضعه على المنضدة، وأكمل السيجارة التي كان قد وضعها جانبًا.

– هل تعرف آرثر ميريك الرسام يا فيليرز؟

– قليلاً؛ لقد التقيته مرة أو اثنتين في بيت أحد الأصدقاء. ماذا عنه؟ لم أسمع اسمه منذ فترة.

– إنه ميت.

– غير معقول! كان صغيرًا للغاية، أليس كذلك؟

– نعم، كان في الثلاثين من عمره فقط عندما مات.

– ما الذي أدى إلى موته؟

– لا أعرف. لقد كان صديقًا حميمًا لأحد أصدقائي، وشخصًا صالحًا للغاية. لقد اعتاد أن يأتي إلى هنا ويتحدث معي بالساعات، وكان واحدًا من أفضل المتحدثين الذين التقيت بهم. كان يمكنه حتى الحديث عن الرسم، وهذا أكثر مما يمكن أن يُقال عن أغلب الرسامين. منذ حوالي ثمانية عشر شهرًا كان يشعر بالإجهاد من العمل المتواصل، وبناء على نصيحتي

قام بالسفر في رحلة طويلة، بلا وجهة معينة. أعتقد أن محطته الأولى كانت نيويورك، ولم أتواصل معه منذ ذلك الحين. وصلني هذا الكتاب منذ ثلاثة أشهر، مع خطابٍ متحضر من طبيب إنجليزي يعمل في بونيس آيرس، مشيرًا إلى أنه قد اعتنى بالفقيد السيد ميريك خلال مرضه، وأن المرحوم قد عبر عن رغبته الجادة في أن يتم إرسال هذا المظروف إليّ مباشرةً بعد موته. هذا كل شيء.

– ألم تراسله لمعرفة المزيد من التفاصيل؟

– كنت أفكر بالفعل في ذلك، هل تنصحني بأن أراسل الطبيب؟

– بالتأكيد. وماذا عن الكتاب؟

– لقد كان مغلقًا عندما وصل إلى، ولا أعتقد أن الطبيب قد رأى ما بداخله.

– هل هو شيءٌ نادر؟ ربما كان ميريك من هواة جمع الأشياء النادرة.

– لا، لا أعتقد ذلك، بالكاد مجرد هاوٍ. والآن، ماذا تعتقد بشأن

هذا السجاجيد التي تنتمي لحقبة الأينو؟

– إنها غريبة، ولكنها تعجبني. ولكن ألن تريني إرث المسكين ميريك؟

– نعم، نعم، بالتأكيد. الحقيقة هي أن ما أنا على وشك أن أُريه لك هو شيء غريب للغاية، حتى أنني لم أُريه لأي أحد على الإطلاق من قبل. لن أتحدث عنه لأي أحد لو كنت مكانك. ها هو ذا.

أخذ فيليرز الكتاب وفتحه بشكل عشوائي.

– إنه ليس كتاب مطبوع إذن؟

هكذا قال.

– لا، إنها مجموعة من الرسومات المُنتقاة بالأسود والأبيض رُسِمت بواسطة صديقي المسكين ميريك.

فتح فيليرز الصفحة الأولى من الكتاب وكانت فارغة، والثانية كان بها نقشٌ مختصرٌ يُقرأ:

Silet per diem universus،
nec sine horroresecretusest;
lucetnocturnisignibus، chorus
Aegipanumundiquepersonatur؛
audiuntur et cantus tibiarum،
et tinnitus cymbalorum per
.orammaritimam[1]

وفي الصفحة الثالثة كان يوجد رسم جعل فيليرز ينتفض وينظر ناحية أوستين؛ الذي كان يحدق بشرود خارج النافذة. قلب فيليرز صفحة وراء صفحة، مستغرقًا رغمًا عنه، في اللوحات المرعبة للوحوش البشعة التي قام الرسام الميت برسمها

(١) «هناك صمت مطبق طوال اليوم، في مكان مخفي بعيدًا لا يخلو من الرعب. يضاء ليلاً بواسطة النار، وجوقة من الأجابينات يتردد صداها في كل مكان. ويسمع صوت المزامير ورنين الصاجات على طول ساحل البحر.» الاقتباس للعالم اللاتيني Gaius Julius Solinus من كتابه De mirabilibus mundi عجائب العالم، يصف مكانًا غير محدد في ليبيا. (المترجم)

بالأبيض والأسود. أشكال الفونات والساتيرات والأجيبانات[1] ترقص أمام عينه، في ظلام الغابة، ترقص على قمة الجبال، على الشواطئ المهجورة، في حقول الكرم الخضراء، في الصحراء والأماكن الصخرية، كل هذا مر أمام عينيه: في عالم حيث تنقبض روح الإنسان وترتجف. تصفح فيليرز بقية الصفحات سريعًا، لقد رأى ما يكفي، ولكن حينما أوشك على إغلاق الكتاب لفتت اللوحة الأخيرة انتباهه.

– أوستين!

– ما الأمر؟

– هل تعرف من هذه؟

لقد كان وجه امرأة، وحده في صفحة بيضاء.

– أعرفها؟ لا، بالتأكيد لا أعرفها.

– أنا أعرفها.

– من هي؟

(١) الفون والساتير سبق تعريفهما أما الأجيبان Aegipan: (باللاتينية: **Αἰγίπαν**) هو من المخلوقات المصاحبة لإله المراعي بان وهو مزيج من الماعز والسمكة. (المترجم)

– إنها السيدة هربرت.

– هل أنت واثق؟

– أنا متأكد بالكامل من ذلك. المسكين ميريك! لقد كان مجرد فصل آخر في حكايتها.

– ولكن ما رأيك في الرسومات؟

– إنها مرعبة. أعد الكتاب إلى الصندوق مرة أخرى. لو كنت مكانك يا أوستين لحرقته؛ لا شك أنه رفيق مرعب حتى لو كان بداخل الصندوق.

– نعم إنها رسومات غريبة. ولكني أتعجب ما الرابط الذي كان بين ميريك والسيدة هربرت، أو الرابط بينها وبين تلك الرسومات؟

– آه، ماذا يمكن أن نقول؟ من الممكن أن ينتهي الأمر هنا ولا نعرف أبدًا، ولكن رأيي الشخصي أن هذه المرأة هيلين فون أو السيدة هربرت، هي فقط مجرد بداية. ستعود إلى لندن يا أوستين؛ ربما حينها نسمع المزيد من الأخبار عنها، ولكني أشك أنها ستكون أخبارًا سارة.

٦

حوادث الانتحار

كان اللورد أرجنتين محبوبًا في أوساط مجتمع لندن. عندما كان في العشرينات من عمره كان رجلاً فقيرًا، يحمل لقب عائلة مشهورة، ولكنه اضطر لكسْب عيشه بكل وسيلة ممكنة، وحتى أكثر المقرضين مغامرة لن يعهد إليه بخمسين جنيهًا خوفًا من أن يتحول اسمه إلى لقب وفقره إلى غنى. استطاع والده كسب ما يكفي لتأمين حياة كل الأسرة ما عدا الابن، حتى لو أطاع الأوامـر، فإنه بالكاد يستطع الحصول على مثل هذا المبلغ، وبمرور الوقت فقد رغبته في ميراثه المستحق.

وهكذا واجه العالم بمؤهلات لا تزيد عن شهادة البكالوريا، وخفة دم الحفيد الأصغر للابن الأصغر، وبهذه المؤهلات استطاع كسب ما يكفي ليقاتل من أجله. في سن الخامسة والعشرين

رأى تشارلز أوبرنون نفسه رجل نضال وكفاح مع العالم، لم يتبق من السبعة الرجال الذي وقفوا ضده من المناصب العليا في عائلته إلا ثلاثة، هؤلاء الثلاثة عاشوا حياة جيدة ولكن ليست محصنة ضد رماح الزولو وحمى التيفويد.

لذا ذات صباح استيقظ أوبرنون ليجد نفسه اللورد أرجنتين، رجل في الثلاثين من عمره واجه صعوبات كثيرة في حياته واستطاع التغلب عليها. بدا الوضع مسليًا جدا له، وصمم أن تكون الثروة ممتعة له كما كان الفقر دومًا. بعد تفكير وصل أرجنتين إلى استنتاج مُفاده أن العشاء باعتباره فن رفيع، سيكون أفضل إغراء ممتع للنفوس البشرية المنحلة، وهكذا أصبحت حفلات العشاء الخاصة به مشهورة في لندن، وأصبحت الدعوة إلى طاولته موضع رغبة وحسد.

بعد عشر سنوات من الريادة ودعوات العشاء، مازال أرجنتين يرفض أن يشعر بالملل، وما يزال مصرًّا على الاستمتاع بحياته، وبنوع من العدوى أصاب الآخرين بالمرح، باختصار، أصبح مشهورًا كأفضل صُحبة. وبالتالي تسبب موته المفاجئ

والمأساوي في ضجة واسعة وعميقة. بالكاد استطاع الناس تصديق الأمر، حتى والجرائد أمام أعينهم والنداء "موت غامض لرجل نبيل" يتردد في الشوارع. وكان هناك مقال ملخصه "عثر على اللورد أرجنتين ميتًا هذا الصباح بواسطة خادمه في ظروف مفجعة، وتم التصريح بأنه لا يوجد شك في أن سيادته قد قام بالانتحار، بالرغم من أنه لا يوجد دافع يمكن أن يعزى إليه هذا الفعل. المرحوم النبيل كان رجلاً مرموقًا في المجتمع، وكان محبوبًا بفضل أخلاقه الودودة وكرمه السخي. وسيخلفه،" إلخ، إلخ.

وببطء خرجت بعد التفاصيل إلى الضوء، ولكن القضية ظلت لغزًا. وكان الشاهد الرئيسي في التحقيق هو خادم المتوفى، الذي قال إنه في الليلة السابقة لموته تعشى اللورد أرجنتين مع سيدة ذات منصب مرموق، والتي تم إخفاء اسمها من تقارير الصحيفة. في حوالي الساعة الحادية عشر عاد اللورد أرجنتين، وأخبر رجاله أنه لن يحتاج خدمتهم حتى صباح اليوم التالي. بعد ذلك بقليل صادف أن سار الخادم عبر البهو وتفاجأ

بسيده يخرج بهدوء من الباب الأمامي، كان قد خلع ملابس السهرة وارتدي معطف نورفولك وسروال نيكربوكر[١] وقبعة بنية صغيرة.

لم يعتقد الخادم أن اللورد أرجنتين قد رآه، وبالرغم من أن سيده نادرًا ما يسهر حتى ساعات متأخرة، إلا أنه لم يفكر في الحدث حتى الصباح التالي، عندما طرق على باب غرفة النوم الساعة التاسعة إلا ربع كالمعتاد. لم يتلق أي إجابة، وبعد أن طرق مرتين أو ثلاثة، دخل الغرفة، ورأى جسد اللورد أرجنتين يميل بزاوية من أسفل السرير. ورأى أن سيده قد ربط حبلاً بإحكام بواحد من أعمدة السرير القصيرة، وبعد ذلك صنع أنشوطة دائرية وربطها حول عنقه، لابد أن الرجل التعيس سقط للأمام، ومات الاختناق البطيء.

كان يرتدي السترة الخفيفة التي رآه الخادم يخرج بها، وأعلن الطبيب الذي تم استدعاؤه أن الوفاة قد حدثت منذ أكثر من

(١) معطف النورفولك: سترة فضفاضة من الجلد بها طيات مربعة وصف واحد من الازرار وعادة ما تكون مصنوعة من صوف التويد الخشن. أما سروال نيكربوكر: فهو سروال قصير فضفاض يحزم عند الركبة أو ربلة الساق ويشتهر به لاعبي الجولف. (المترجم)

أربعة ساعات. كل الأوراق والخطابات وما إلى ذلك كانت مرتبة بشكل كامل، ولم يتم اكتشاف ما يشير إلى شيء مخزٍ سواء كبير أو ضئيل. هنا انتهت كل الأدلة؛ ولا شيء أكثر من ذلك يمكن اكتشافه. عديد من الأشخاص كانوا حاضرين في العشاء الذي شهده اللورد أرجنتين، وقد بدا لهم أنه كعادته في مزاج مرح. قال الخادم إن سيده بدا بالفعل متحمسًا قليلاً عندما عاد إلى البيت، ولكنه أقر أن التغير في مزاجه كان بالكاد ملحوظًا، بدا البحث عن أي مفتاح لحل اللغز أمرًا ميؤوسًا منه، ولاقى الاقتراح بأن اللورد أرجنتين راودته فجأة رغبة مهووسة بالانتحار قبولاً عامًا.

إلا أنه في غضون ثلاثة أسابيع، ثلاثة رجال آخرين - واحد منهم من النبلاء، والاثنين الآخرين من أصحاب المناصب المرموقة والثروة الوافرة - لقوا حتفهم على نحو بائسٍ بنفس الطريقة تقريبًا.

اللورد سوانلي عثر عليه ذات صباح في غرفة خلع الملابس مشنوقًا متدليًا من مشجب موضوع على الحائط، أما السيد

كولير والسيد هيريس فقد اختارا الموت بطريقة اللورد أرجنتين. لم يكن هناك تفسير لأي من تلك الحالات، فقط بعض الحقائق المجردة، رجل حيّ في المساء، وجثة بوجه أسود منتفخ في الصباح. لقد اضطرت الشرطة من قبل للاعتراف بعجزها أمام تفسير جرائم قتل وايت تشابل[١] أو الإمساك بالجناة.

ولكن أمام جرائم الانتحار في بيكادلي ومافير وجدوا أنفسهم عاجزين عن التعبير، ولا حتى نظرية العنف من أجل العنف التي أدت دورها في تفسير جرائم الحي الشرقي[٢]، تستطيع أن تؤدي واجبها في تفسير جرائم الغرب. كل واحد من هؤلاء الرجال الذين أقدموا على الموت بطريقة مؤلمة ومخزية كان

---

(١) جرائم قتل وايت تشابل هي مجموعة من جرائم القتل التي ارتكبت في منطقة وايت تشابل الفقيرة أو بالقرب منها، وهي تقع في الطرف الشرقي من لندن، وقد وقعت هذه الجرائم فيما بين ٣ أبريل ١٨٨٨ و١٣ فبراير ١٨٩١، وعددها إحدى عشرة جريمة. بعض هذه الجرائم الإحدى عشرة أو كلها تُنسب إلى القاتل المتسلسل المجهول المعروف باسم «جاك السفاح»، وقد ارتكبت هذه الجرائم على النساء. (ويكيبيديا)

(٢) يقصد وايت تشابلالتي تقع في الطرف الشرقي من لندن مقابل الطرف الغربي الذي تقع فيه حوادث الانتحار. (المترجم)

غنيًا وناجحًا وبدا بكل طريقة متصالحًا مع العالم، ولم يستطع أي بحث ثاقب أن يعثر على أدنى أثر لدافع خفي في أي من الحالات.

خيَّم الرعب على الناس، وأخذ الرجال ينظرون لبعضهم البعض كلما التقوا، وكل واحد يتساءل بداخله إن كان الآخر سيكون الضحية الخامسة لهذه المأساة المجهولة. سعى الصحفيون عبثًا لجمع مواد صحفية من أجل تلفيق مقالات تثير الضجة، وأصبحت جريدة الصباح تُفتح في كثير من المنازل مع الإحساس بالرعب؛ فلا أحد يعرف من أو من أين ستأتي الضربة القادمة.

بعد مدة قصيرة من وقوع آخر تلك الحوادث المرعبة، أتى أوستين لرؤية السيد فيليرز. كان شغوفًا بمعرفة إن كان فيليرز قد استطاع العثور على أي أثر جديد للسيدة هربرت، إما من خلال كلارك أو من خلال مصادر أخرى، وقد ألقى سؤاله بمجرد أن جلس.

أجابه فيليرز:

– لا، لقد قمت بمخاطبة كلارك، ولكنه لا يزال عنيدًا، وحاولت تجريب وسائل أخرى، ولكنها كانت بلا جدوى. لا أستطيع معرفة ما حدث لهيلين فون بعد مغادرة شارع پاول، وأظن أنها ذهبت خارج البلاد. ولكن أخبرني بالحقيقة يا أوستين، فأنا لم أهتم كثيرًا بالمسألة طوال الأسابيع الماضية؛ كنت أعرف المسكين هيريس معرفة وثيقة، وموته المفزع كان صدمة عظيمة لي.

أجاب أوستين بحزن:

– أشعر بما تشعر به، فأرجنتين كان صديقًا مقربًا لي. إن كنت تذكر جيدا، كنا نتحدث عنه في ذلك اليوم عندما أتيت إلى بيتي.

– نعم فقد كانت له علاقة بهذا البيت في شارع أشلي، منزل السيدة بومونت. قلت شيئًا عن ذهاب أرجنتين لحفلات العشاء هناك.

– نعم بالضبط، أنت تعرف بالطبع أن أرجنتين كان يتناول العشاء هناك في تلك الليلة قبل ... قبل موته.

– لا، لم أسمع بذلك.

– أوه! نعم؛ فالاسم لم يتم التصريح به في الجرائد لكيلا يتم توريط السيدة بومونت. كان أرجنتين من الأصدقاء المفضلين لها، وقالت إنها مرت بحالة سيئة لبعض الوقت بعد الحادثة.

ارتسم الفضول على ملامح فيليرز، وبدا عليه مترددًا إن كان عليه أن يتكلم أو لا. وأكمل أوستين قائلاً:

– لم أمرّ من قبل بمثل هذا الشعور بالرعب عندما قرأت المقال عن موت أرجنتين. لم أستطع استيعابه في ذلك الوقت، ولا أستطيع حتى الآن. فأنا كنت أعرفه جيدًا، الأمر يتجاوز قدرتي على أن أفهم ما الذي يدفعه ـ أو أي واحد من الآخرين في نفس القضية ـ لقتل نفسه بتلك الطريقة البشعة. أنت تعرف كيف يثرثر الرجال في لندن عن الأشخاص الآخرين، يمكنك أن تكون متأكدًا أنه لو كان هنالك أي فضيحة مدفونة، أو عار مغمور، كان سيتم تسليط الضوء عليه في قضية مثل هذه؛ ولكن لم يظهر شيء من هذا القبيل. أما عن نظرية هوس الانتحار، فهي بالطبع من أجل الطب الشرعي، ولكن الجميع يعرف أن هذا هراء. هوس الانتحار ليس مجرد مرض معدي.

عاد أوستين إلى صمته الكئيب، فيما جلس فيليرز صامتًا، يراقب صديقه. وإحساس التردد ما يزال مرتسمًا على وجهه؛ بدا كما لو كان يزن أفكاره، والاعتبارات التي وصل إليه تركته صامتًا. أما أوستين فقد حاولت أن يبعد الذكريات المأساوية، بيأس وحيرة، كمتاهة ديدالوس[1]، وبدأ يتحدث بصوت فاتر عن الأحداث الأكثر بهجة، ومغامرات الموسم. فقال:

– هذه السيدة بومونت التي كنا نتحدث عنها، إنها ناجحة للغاية، لقد اشتهرت فجأة في لندن. التقيت بها ذات ليلة في فولهام، إنها امرأة استثنائية حقًا.

– أنت التقيت بالسيدة بومونت؟

– نعم، لديها هالة غريبة محيطة بها. يمكن أن تطلق عليها حسناء للغاية، ولكن مع ذلك يوجد شيء في وجهها لم يعجبني.

(١) هي متاهة مشهورة في الأساطير الإغريقية بناها ديدالوس للملك مينوس في جزيرة كريت، ومحبوس بها المينوتور وهو مخلوق نصفه بشري ونصفه الآخر ثور، وقد غضب الملك مينوس على ديدالوس وأمر بحبسه وابنه إيكاروس في المتاهة، وقد استطاعا الهروب بأجنحة من الريش ثبتاها على ظهريهما بالشمع، وأثناء هروبهما من المتاهة، حلّق الابن إيكاروس قريبا من الشمس، متجاهلا نصيحة والده، فهوى صريعا بعد أن أذابت أشعة الشمس الشمع المثبّت لجناحيه. (المترجم)

الملامح فائقة الجمال، ولكن التعبير المرتسم عليها غريب. وطوال الوقت كنت أنظر إليها، وبعد ذلك وأنا عائد إلى البيت، كان لدي شعور الغريب أن هذا التعبير بالذات كان بشكل أو بآخر مألوف بالنسبة لي.

– ربما تكون قد رأيتها بالشارع عُرضة.

– لا، أنا متأكد أن عيني لم تقع على هذه المرأة من قبل؛ وهذا ما يزيد من حيرتي. وعلى الأرجح فأنا لم أرَ أيّ أحد شبيه بها من قبل؛ ما أحسست به كان يشبه ذكرى بعيدة باهته؛ مبهمة ولكنها أكيدة. أقرب شعور يمكنني مقارنته به، هو الشعور الذي يشعر به الإنسان أحيانا وهو يحلم، عندما يرى مدنًا خيالية وأراضٍ عجيبة وأشخاصًا وهمية ويشعر أنها مألوفة ومعتادة.

اومأ فيليرز برأسه وهو يتفحص الغرفة بلا هدف، ربما للبحث عن شيء يغير مجرى الحديث. وبشكل ما وقع نظره على الصندوق الغريب حيث يكمن الإرث الغريب للرسام أسفل الرموز القوطية، وسأل:

– هل راسلت الطبيب بشأن المسكين ميريك؟

– نعم؛ أرسلت أسأله عن التفاصيل الكاملة لمرضه وموته. لا أتوقع أن يصلني الرد قبل ثلاثة أسابيع أو شهر. فكرت أيضًا أن اسأله إن كان ميريك قد عرف امرأة انجليزية تدعى هربرت، وإن كان الأمر كذلك فهل يستطيع الدكتور إعطائي أي معلومات عنها. ولكن من المرجح جدًا أن ميريك قد التقى بها في نيويورك، أو المكسيك، أو سان فرانسسكو؛ لا فكرة لدي عن مدة أو وجهة أسفاره.

– نعم، ومن الممكن جدًا أن يكون لدى المرأة أكثر من اسم.

– بالضبط، أتمنى لو كنت قد فكرت في أن أطلب منك أن تقرضني الرسمة الخاصة بها التي لديك، كنت قد أدرجها في خطابي إلى د.ماتيوس.

– إذن يمكنك ذلك؛ هذا لم يخطر على بالي. يمكننا إرسالها الآن. أنصتْ! ما الذي يصيح به هؤلاء الصبية؟

بينما يتناقش الرجال سويًّا أتى صوت جلبة مربكة لصياح يعلو بالتدريج. أتت الضوضاء من الاتجاه الشرقي لشارع بيكادلي وهي تقترب بالتدريج كسيل جارف من الأصوات؛ مجتاح الشوارع

الهادئة، جاعلاً كل نافذة إطارًا لوجه فضولي أو متحمس. تردد صدى الأصوات والصيحات في الشارع الهادئ حيث يسكن فيليرز، وهي تزداد وضوحًا كلما اقتربوا، وبينما فيليرز يتساءل، أجابه الصوت المرتفع من ناحية الرصيف:

"رعب الحي الغربي؛ حادثة انتحار بشعة أخرى؛ اقرأ التفاصيل الكاملة!"

هبط أوستين درجات السلم ركضًا، وقام بشراء الجريدة وقرأ المقال ل فيليرز بينما الضجيج في الشارع يعلو ويخفت. النافذة كانت مفتوحة والهواء بدا ممتلئًا بالضوضاء والرعب.

"رجل محترم آخر سقط ضحية وباء الانتحار المريع الذي اجتاح الحي الغربي طوال الشهر الماضي. السيد سيدني كراشو من منزل ستوك، فولهام، الملك بوميروي، ديفون، عثر عليه، بعد بحث طويل، مشنوقًا في فرع شجرة بحديقته اليوم في الساعة الواحدة. المرحوم تعشى مساء اليوم السابق في ملهى كارلتون وبدا في حالته الصحية والمعنوية المعتادة. ترك الملهى حوالي الساعة العاشرة، وتمت رؤيته بعد ذلك بقليل

يسير بتمهل في شارع جيمس. لا يمكن اقتفاء أثره بعد ذلك. بمجرد اكتشاف الجثة تم استدعاء النجدة الطبية، ولكن بدا من الواضح أن الحياة قد فارقته منذ فترة طويلة. ما نعرفه حتى الآن أن السيد كراشو لا يعاني من اضطرابات من أي نوع. حادث الانتحار الأليم سيتم تذكره باعتباره الحادث الخامس من نوعه الذي يقع خلال الشهر الماضي. السلطات في شرطة سكوتلاند يارد عاجزين عن تقديم أي تفسير لهذه الأحداث المخيفة."

وضع أوستين الجريدة جانبًا في رعب صامت. ثم قال:

- يجب أن أغادر لندن غدًا، إنها مدينة الكوابيس. كم هذا مريع يا فيليرز!"

كان السيد فيليرز يجلس بجوار النافذة، وهو ينظر إلى الشارع في صمت. كان قد استمع إلى تقرير الجريدة باهتمام، وأمارات التردد لم تعد بادية على وجهه.

- انتظر لحظة يا أوستين، لقد حسمت أمري بأن أخبرك عن أمر صغير حدث الليلة الماضية. لقد ذكرت حسبما أعتقد أن

كراشو تم رؤيته حيًا للمرة الأخير في شارع جيمس بعد العاشرة بقليل؟

– نعم أعتقد ذلك. سألقي نظرة مرة أخرى. نعم أنت على حق تمامًا.

– إذن هكذا. حسنًا أنا في موضع يسمح لي بمعارضة هذا التقرير على كل حال. تم رؤية كراشو بعد ذلك بكثير في الواقع.

– وكيف تعرف ذلك؟

– لأنه تصادف أنني رأيت كراشو بنفسي حوالي الساعة الثانية هذا الصباح.

– أنت رأيت كراشو؟ أنت يا فيليرز؟

– نعم رأيته بوضوح تمامًا؛ بل لم يكن هناك إلا بضعة أقدام بيني وبينه.

– أين رأيته بحق السماء؟

– ليس بعيدًا عن هنا. لقد رأيته في شارع أشلي. وهو يغادر أحد المنازل؟

– هل لاحظت المنزل الذي كان يغادره؟

– نعم، لقد كان منزل السيدة بومونت.

– فيليرز! فكر فيما تقوله؛ لابد أن هناك خطأ ما. كيف يمكن أن يكون كراشو في منزل السيدة بومونت في الساعة الثانية صباحًا؟ بالتأكيد كنت تحلم يا فيليرز، بالتأكيد، أنت دائمًا كثير التوهم.

– لا، كنت يقظًا للغاية. حتى لو كنت أحلم كما تقول، فما رأيته كان سيوقظني بشكل مفجع.

– ماذا رأيت؟ هل كان هناك شيء غريب بشأن كراشو؟ أظن أنني لا أستطيع تصديق ذلك؛ هذا مستحيل.

– حسنًا! إن كنت ترغب سأخبرك بما رأيت، أو كما تقول ما أظن أني رأيت، ثم تحكم على الأمر بنفسك.

– حسنا يا فيليرز.

كان الشغب والضوضاء قد خفتت في الشارع، رغم أنه من آن لأخر يأتي صوت صياح من بعيد، وبدا الصمت الباهت الكئيب

مثل الهدوء بعد الزلزال أو العاصفة. استدار فيليرز بعيد عن النافذة وبدأ يتحدث.

– كنت في بيت بالقرب من منتزه ريجنت الليلة الماضية، وبينما أنا عائد راودتني رغبة في السير بدلا من أخذ عربة. كانت ليلة صافية مبهجة، وبعد دقائق كنت في الشوارع وحدي. إنه أمر غريب يا أوستين، أن تكون وحدك في ليل لندن، أعمدة الإنارة تمتد بعيدًا على مرمى النظر، والصمت التام، وأحيانًا تسمع صوت اندفاع عربة على الأرض الصخرية، وترى شرارات النار أسفل حوافر الخيل. كنت أسير طوال الطريق بخطوات مسرعة، فقد كنت متعبًا من السهر بالخارج في الليل، وبينما الساعة تدق الثانية صباحًا انعطفت في شارع أشلي، وهو في طريقي كما تعرف.

كان الشارع أكثر هدوءًا من المعتاد، والمصابيح كانت خافته، فبدا مظلمًا وكئيبًا كليلة من ليالي الشتاء. كنت قد قطعت تقريبًا نصف الشارع عندما سمعت صوت باب يغلق بخفة، وبتلقائية نظرت لأرى من مثلي بالخارج في مثل هذه الساعة. وصادف

أن هناك عمود إنارة بالقرب من البيت، ورأيت رجلاً يقف على الدرج، كان قد أغلق الباب للتو ووجهه كان يقابلني، وتعرفت فورًا عليه، إنه كراشو. لم أعرفه شخصيًا من قبل لأتحدث إليه، ولكني رأيته عدة مرات، ومتأكد أنني لم أخطئ في التعرف عليه. نظرت في وجهه للحظات ثم ... سأعترف لك بالحقيقة ... لقد ركضت مبتعدًا، واستمررت على ذلك حتى وصلت إلى باب بيتي.

- لماذا؟

- لماذا؟! لأن رؤية وجه هذا الرجل جعلت الدماء تتجمد في عروقي. لم أتخيل أبدًا أن مثل هذا المزيج من الشهوات الشيطانية من الممكن أن يطل من عينيّ كائن بشري؛ كدت أن أفقد وعيي وأنا أنظر إليه. لقد عرفت أنني أنظر في عينيّ روح ضالة يا أوستين، الهيئة الخارجية لها ظلت بشرية، ولكن الجحيم كان بداخلها. شهوة جامحة، وكراهية مشتعلة مثل النيران، كأنها تصرخ في يأسٍ ورعبٍ بصوتٍ عالٍ في سكون الليل، بالرغم من أن فمه كان مغلقًا، وتبدو منه الظلمة المطلقة

لليأس. أنا متأكد انه لم يراني؛ لم يكن يرى شيئًا يمكننا أنا أو أنت رؤيته، ولكن ما رآه أتمنى ألا نراه أبدًا. لا أعرف متى مات؛ أعتقد أنه خلال ساعة، أو ربما ساعتين، ولكن عندما سرت في شارع أشلي وسمعت إغلاق الباب، هذا الرجل لم يعد ينتمي إلى هذا العالم؛ ما نظرت إليه هو وجه شيطان.

كان هناك فاصلٌ من الصمت عندما انتهى فيليرز من الحديث. الضوء كان يخفت، وكل الجلبة من الساعة الماضية كانت قد صمتت تمامًا. أحنى أوستين رأسه في ختام القصة، وغطى عينيه بيديه. وبعد صمت قال:

– ما يمكن أن يعنيه ذلك؟

– من يعرف يا أوستين، من يعرف؟ إنها قضية سوداء، ولكني أعتقد أنه من الأفضل أن نحتفظ بالأمر لأنفسنا، في الوقت الحاضر على أية حال. سأرى إن كنت أستطيع معرفة بعض المعلومات عن هذا البيت من خلال بعض مصادر المعلومات الخاصة، وإن استطعت استبيان أي شيء سأُعْلمك بالأمر.

٧

اللقاء في شارع سوهو

بعد ثلاثة أسابيع تلقى أوستين رسالة من فيليرز، يطلب منه أن يوافيه إما في ظهر اليوم أو في اليوم التالي. اختار الموعد الأقرب، ووجد فيليرز جالسًا كعادته بجوار النافذة، مستغرقًا في تأمل الزحام المتسكع بالشارع. كانت هناك منضدة من خشب الخيزران بجواره، تبدو رائعة للغاية، ومطلية بمشاهد عجيبة، وفوقها كومة من الأوراق مرتبة بنظام كأي شيء في مكتب السيد كلارك.

– حسنًا يا فيليرز، هل اكتشفت أي شيء في الأسابيع الثلاثة الماضية؟

– أعتقد هذا؛ لديّ هنا مذكرة أو اثنتين غريبة للغاية، وهناك تقرير سيثير اهتمامك بالتأكيد.

– وهذه الوثائق لها علاقة بالسيدة بومونت؟ هل كان كراشو حقًّا هو من رأيته تلك الليلة يقف على درج الباب لهذا المنزل بشارع آشلي؟

– بالنسبة لهذه المسألة فاعتقادي لم يتغير، ولكن لا تحقيقاتي ولا استنتاجاتي لها علاقة بالسيد كراشو. ولكن تحقيقاتي كانت لها نتيجة غريبة. لقد استطعت معرفة من تكون السيدة بومونت.

– من تكون؟ ما الذي تعنيه؟

– أعني أن كلينا يعرفها، ولكن تحت اسم آخر.

– أي اسم هذا؟

– هربرت.

– هربرت!

كرر أوستين الكلمة مذهولاً وهو يشعر بالدوار.

– نعم السيدة هربرت من شارع پاول، أو هيلين فون من مغامرات أخرى سابقة مجهولة لي. هناك سبب وجيه لتعرفك على التعبير المرتسم على وجهها؛ عندما تعود إلى البيت انظر

إلى الوجه المرسوم في كتاب ميريك المرعب، وستعرف لما كان التعبير مألوفًا لك.

– وهل لديك دليلٌ على ذلك؟

– نعم، أفضل دليل على ذلك؛ لقد رأيت السيدة بومونت، أم يجب أن نقول السيدة هربرت؟

– أين رأيتها؟

– في أبعد مكان يمكنك أن تتخيل أن ترى فيه سيدة من شارع آشلي ببيكادلي. رأيتها تدخل واحدًا من أقذر الشوارع وأسوئهم سمعة في سوهو. في الواقع، كنت قد قمت بترتيب موعد، وان لم يكن معها، وكانت دقيقة في كلا الموعد والمكان.

– كل هذا يبدو غريبًا، ولكن لا أستطيع أن أقول إنه لا يُصدق. لابد أنك تذكر يا فيليرز أنني رأيت تلك المرأة تحيا الحياة الاعتيادية لمجتمع لندن، تتحدث وتضحك، وتشرب قهوتها في الأماكن العامة مع الشخصيات العامة، ولكنك تعرف ما تقول.

– أعرف؛ فأنا لم أسمح لنفسي أن تقودها الظنون والأوهام.

لم يكن لدي أي فكرة أنني سأعثر على هيلين فون أثناء بحثي عن السيدة بومونت في المناطق المظلمة من حياة لندن، ولكن هكذا حدث الأمر.

– لا شك أنك ذهبت إلى أماكن غريبة يا فيليرز.

– نعم، لقد ذهبت إلى أماكن غريبة حقًا. لم يكن ذو جدوى ـ كما تعرف ـ أن أذهب إلى شارع آشلي، وأسأل السيدة بومونت أن تعطيني توضيحًا ملخصًا عن تاريخها السابق، لا؛ بافتراض ـ كما يجب لي أن أفترض ـ أن سجلها ليس الأنظف، فمن المؤكد تمامًا أنها قد تورطت في وقت من أوقاتها الماضية في أمور ليست نظيفة كمثيلتها في الوقت الحالي، إذا رأيت الوحْل على سطح التيَّار، فعليك أن تكون متأكدًا أن الوحل كان يومًا بالقاع.

أنا ذهبت إلى القاع، فقد كنت مغرمًا دومًا بالغوص في المناطق الغريبة من أجل التسلية، وقد كانت معرفتي بتلك المناطق ومعرفة قاطنيها مفيدة للغاية بالنسبة لي. ربما يكون من البديهي القول بأن أصدقائي لم يسمعوا من قبل باسم بومونت، وبما أنني لم أرها من قبل، فقد كان من الصعب أن أصفها

لهم، لذا اضطررت للعمل بطريقة غير مباشرة. الناس هناك يعرفونني؛ فقد أتيح لي الفرصة أن أقوم بإسداء بعض الخدمات لهم بين الحين والآخر، لذا لم يكن من الصعب عليهم أن يقوموا بإعطائي بعض المعلومات، فهم على علم بأنه لا يوجد اتصال مباشر أو غير مباشر بيني وبين سكوتلاند يارد.

كان عليّ إهمال الكثير من الخطوط قبل أن أعثر على ضالتي، وعندما أمسكت بالصيد لم أعرف في تلك اللحظة أنها ما أبحث عنه. ولكني استمعت إلى ما قيل إليَّ بملء فضولي إلى المعلومات عديمة الأهمية، ووجدت نفسي أمتلك قصة مثيرة للاهتمام، بالرغم من أنني كنت أتخيل أنها ليست القصة التي أبحث عنها. وكانت على النحو التالي.

منذ خمس أو ست سنوات مضت، ظهرت امرأة تدعى ريموند فجأة في الحي الذي أتحدث عنه. وتم وصفها لي بأنها كانت صغيرة للغاية، ربما لا تزيد عن السابعة عشر أو الثامنة عشر من العمر، حسناء للغاية، ومظهرها يُوحي بأنها قد قدمت من الريف. وأكون مخطئًا لو قلت إنها وجدت المكان الذي يليق

بها في هذا الحي أو بالتعامل مع هؤلاء الناس، لأنه بحسب ما سمعته فإن أسوء وكْر إجرامي في لندن هو مكان راقٍ مقارنة بما تستحقه.

الشخص الذي حصلت منه على المعلومات ـ كما لك أن تفترض ـ ليس متدينًا للغاية، ولكنه ارتجف وأصابه الغثيان وهو يُخبرني عن الأشياء العديدة المُشينة التي قامت بارتكابها. وبعد أن عاشت هناك لمدة عام، أو ربما أكثر، اختفت فجأة كما ظهرت فجأة، ولم يسمعوا شيئًا عنها حتى وقت حادثة شارع پاول. في البداية كانت تأتي إلى المكان ـ الذي اعتادت ارتياده ـ لِمَامًا، ثم أصبحت تأتي في الكثير من الأحيان، ثم عادت للإقامة في المكان بشكل دائم كما اعتادت من قبل، ثم بقيت هناك لمدة ستة أو ثمانية أشهر.

ليس من المهم أن أخبرك بتفاصيل حياة تلك المرأة؛ لو أردت المزيد من التفاصيل يمكن أن تنظر إلى رسومات ميريك، هذه الرسومات لم يرسمها من خياله. ثم اختفت مجددًا، ولم يعرف الناس في هذا المكان عنها شيئًا حتى عدة أشهر مضت.

أخبرني صديقي أنها استأجرت عدة غرف في البيت الذي أشار إليه، واعتادت على زيارة تلك الغرف مرة أو مرتين في الأسبوع، ودائمًا في العاشرة صباحًا، وبلغ إلى علمي أن واحدة من تلك الزيارات ستقع في يوم محدد بالأسبوع الماضي، وقد استطعت ترتيب موعد لمراقبتها مع صديقي في حوالي الساعة العاشرة إلا ربع، وبحلول الساعة العاشرة وصلت السيدة في موعدها بالضبط.

أنا وصديقي كنا نقف أسفل ممر، بعيدًا بعض الشيء عن الشارع، ولكنها رأتنا، ونظرت ناحيتي نظرة مخيفة. هذه النظرة كانت كافية بالنسبة لي؛ لقد عرفت أن الآنسة ريموند هي السيدة هربرت، أما عن كونها السيدة بومونت فهذا قد غاب عن ذهني. دلفت إلى البيت وراقبتها حتى الساعة الرابعة، وعندما خرجت لحقت بها. كانت مطاردة طويلة، وكان عليَّ أن أكون حذرًا بإبقاء مسافة كافية بيني وبينها، وألا أفقد أثرها في نفس الوقت. ورأيتها وهي تقطع شارع ستراند ومنه إلى ويستمنستر مرورا بشارع جيمس، ثم طريق بيكادلي، وتعجبت عندما رأيتها

تنعطف إلى شارع آشلي؛ وعندها خطر على ذهني فجأة أن السيدة هربرت قد تكون هي السيدة بومونت، ولكن الأمر بدا لي عصيًا على التصديق.

انتظرت على الناصية؛ واضعًا عيني عليها طوال الوقت، مُوليًا اهتمامًا خاصًّا بمعرفة البيت الذي ستقف أمامه، لقد كان البيت ذو الستائر المبهجة، والزهور الملونة، البيت الذي رأيت كراشو يخرج منه في الليلة التي شنق فيها نفسه في حديقته. كنت على وشك الابتعاد باكتشافي، عندما رأيت عربة فارغة تنعطف وتتوقف أمام البيت، فاستنتجت أن السيدة هربرت على وشك الخروج في جولة، وقد كنت محقًا. عندها ـ بالمصادفة ـ التقيت برجل أعرفه ووقفنا نتحدث سويًا على مسافة من العربة، التي أوليت لها ظهري.

كنا قد وقفنا هناك لمدة عشر دقائق عندما رأيت صديقي يخلع قبعته والتفتُّ لأرى السيدة التي كنت أتبعها طوال اليوم فقلت له: 'من تكون هي؟' واجباته كانت: 'السيدة بومونت؛ تسكن في شارع آشلي' بالطبع لم يعد هناك مجال للشك بعد ذلك. لا أعرف إن

كانت رأتني أم لا، ولكني لا أعتقد أنها رأتني. عدت إلى البيت على الفور، وبإعادة النظر في الأمر، فكرت أن معي قضية جيدة بما يكفي لأذهب بها إلى كلارك.

– لماذا كلارك؟

– لأني متأكد أن كلارك على علم بما يكفي من الحقائق حول هذه المرأة، حقائق لا أعرف عنها شيئًا.

– حسنًا، وماذا بعد ذلك؟

اتكأ فيليرز بظهره إلى الكرسي وهو يتأمل أوستين للحظات قبل أن يجيب:

– فكرتي كانت أنه كان عليّ أنا وكلارك الاتصال بالسيدة بومونت.

– أنت لن تذهب إلى مثل هذا البيت؟ لا، لا يا فيليرز، لا تستطيع أن تفعل ذلك. بجانب أنه عليك أن تفكر في العواقب...

– سأخبرك بما سيحدث قريبا. ولكن ما أود أن أخبرك به هو أن معلوماتي لم تنته هنا؛ لقد اكتملت بأغرب طريقة ممكنة، أنظر

إلى تلك الحزمة الأنيقة من المخطوطات؛ إنها مُرقمة كما ترى، ومُزينة بشريط أحمر رقيق، تبدو بريئة أليس كذلك؟ إنه تقرير عن المتعة التي تقدمها السيدة بومونت لضيوفها المختارين. الرجل الذي كتب هذا هرب بحياته، ولكني لا أعتقد انه سيعيش طويلاً. الطبيب أخبره أنه يعاني من صدمة عصبية حادة.

أخذ أوستين المخطوطة، ولكنه لم يقرأها. فتح الصفحات الأنيقة بشكل عشوائي والتقطت عينه الكلمات والعبارات المكتوبة بها؛ وأحس بالتقزز، وابيضت شفتاه، وانهمر العرق البارد صدغيه، فألقى بالورقات أرضًا.

– خذها بعيدًا يا فيليرز، ولا تتحدث عنها مجددًا. هل أنت مصنوع من صخر يا رجل؟ لماذا؟ لا شيء مقارنة بهذا حتى الفزع والرعب والموت ذاته. أنا لن اقرأه. ولا أعتقد أنني سأقدر على النوم مجددًا.

– حسنًا، أستطيع تصور ما تقوله. نعم؛ إنه بشع للغاية؛ ولكن على كل حال، إنها حكاية قديمة، لغز قديم يتكرر في وقتنا الحاضر، وفي شوارع لندن القاتمة بدلاً من حقول الكرم والزيتون. نحن

نعرف ما حدث لهؤلاء الذين التقوا بالإله العظيم بان، وكل العقلاء يعرفون أن كل الرموز هي رمز إلى شيء ما، ليست رمزًا لـ لا شيء. لقد كان حقًا رمزًا متقنًا لقُوَى مُريعة وسرية غابت عن معرفة البشر منذ زمن بعيد، والتي تكمن في قلب كل شيء.

أمام تلك القوى تذبل روح الإنسان وتموت وتتشوه، كما يتفحم الجسد بفعل التيار الكهربي. مثل تلك القوى لا يمكن تسميتها، لا يمكن الحديث عنها، لا يمكن تخيلها إلا من وراء حجاب، ومن خلال رموز، رموز تبدو لنا غريبة، خيال شعري، وتبدو لبعضنا حكايات سخيفة. ولكن أنا وأنت على أية حال، قد عرفنا شيئًا من الرعب الذي يكمن في الأماكن الخفية من الحياة، متجليًا أسفل اللحم البشري؛ ذلك الذي ليس له شكل مادي يحاول أن يتخذ لنفسه شكلاً. ويلاه يا أوستين! كيف يمكن أن يحدث ذلك؟ كيف يمكن أن يتحول كل شعاع ضوء إلى ظلام أمام هذا الشيء، إن الأرض الصلبة لتنصهر وتغلي أسفل عبء كهذا.

أخذ فيليرز يقطع الغرفة جيئةً وذهابًا، وقد بدت حبات العرق في جبهته. فيما جلس أوستين في صمت لبرهة من الوقت، ورآه

فيليرز يرسم علامة أمام صدره.

– أقول لك مرة أخرى يا فيليرز، أنت بالتأكيد لن تدخل مثل هذا البيت؟ أنت لن تخرج حيًا.

– بل سأخرج حيًا يا أوستين، ومعي كلارك.

– ما الذي تعنيه؟ ألنّ تستطيع، لن تجرؤ ...

– اسمعني. الهواء كان لطيفًا ومنعشًا هذا الصباح؛ كانت هناك هبة من النسيم، حتى خلال تلك الشوارع الكئيبة، وفكرت أنه يمكنني أن أتمشى قليلاً. امتد طريق بيكادلي أمام عيني صافيًا، والأفق مشرقًا، والشمس تنعكس على العربات وعلى الأوراق المرتجفة في المنتزه. كان صباحًا مبهجًا، والرجال والنساء نظروا إلى السماء وابتسموا وهم ذاهبون إلى عملهم أو متعتهم، والنسيم يهب بمرح على المروج والزهور العطرة. ولكن...

بطريقة أو بأخرى خرجتُ من هذا الصخب والابتهاج، ووجدتُّ نفسي أسير ببطء في شارع كئيب وساكن، حيث بدا أنه لا شمس ولا هواء، وحيث العدد القليل من المارة يسيرون بتسكع،

ويتلكئون حول النواصي والمداخل. مشيت للأمام أعرف بالكاد إلى أين كنت ذاهبًا، أو ماذا كنت أفعل، ولكني شعرت بشيء يحثني - كما يشعر الإنسان أحيانا - أن أستكشف أبعد من ذلك. مع فكرة غامضة عن الوصول إلى هدف ما مجهول.

وهكذا سرت في الشارع بشكل ثابت مطرد، ملاحظًا العدد الصغير من رواد أحد المتاجر، ومتعجبًا من المزيج المتناقض من الغلايين، والتبغ الأسود، والحلوى، والصحف، والأغاني الهزلية التي تتزاحم هنا وهناك وتدفع بعضها البعض في الحيز الضيق لنافذة واحدة. أعتقد أنها القشعريرة الباردة التي اجتاحتني هي التي أخبرتني أول الأمر أنني عثرت على ما أبحث عنه.

بحثت بعيني وأنا أقف على الرصيف أمام المتجر المغبر، حيث بهتت الحروف المكتوبة أعلاه، وحيث تحولت الحجارة الحمراء التي عمرها مائتي عام إلى اللون الأسود؛ وحيث تجمع حول النوافذ غبار سنوات لا تعد ولا تحصى. رأيت ما كنت أبحث عنه، وأظن أنه مرت خمس دقائق قبل أن أتمالك نفسي، وأخطو

داخل المتجر، وأطلبه بصوت بارد وملامح هادئة.

أعتقد أنه كانت هناك رجفة في كلماتي، لأن الرجل العجوز الذي جاء من القاعة الخلفية، وتلمس طريقه ببطء خلال بضائعه، قد نظر ناحيتي بغرابة وهو يربط الحزمة. نقدته الثمن الذي طلبه، وانحنيت على الطاولة بنفور غريب لآخذ البضاعة وأرحل. سألت عن العمل، وعلمت أن التجارة كانت سيئة، والأرباح منخفضة للأسف؛ فالشارع لم يعد كما كان قبل أن يتم تحويل مجرى حركة المرور منذ أربعين عامًا قبل موت والدي بقليل هكذا قال. وبالنهاية رحلت، وسرت مبتعدًا بخطوات مسرعة، لقد كان شارعًا كئيبًا حقًا، وكنت سعيدًا بالعودة إلى الصخب والضوضاء. هل تريد رؤية ما قمت بشرائه؟

لم يقل أوستين شيئًا، ولكنه أومأ برأسه قليلاً، مازال يبدو شاحبًا ومشمئزًا. جذب فيليرز درجا من الطاولة، وأرى أوستين لفافة طويلة من الحبال، قاسية وجديدة، وبنهايتها يوجد أنشوطة دائرية.

قال فيليرز:

– هذا أجود نوع من الحبال الصلبة، كما اعتادوا أن يصنعوه قديمًا، لا يوجد بوصة واحدة لينه فيه.

اصطكت أسنان اوستين، وبدا شاحبًا للغاية وهو ينظر ناحية فيليرز. ثم غمغم في النهاية:

– أنت لن تفعلها. لن تلطخ أيديك بالدماء. يا إلهي!

ثم صرخ بحدة مفاجئة:

– لا يمكن أن تعني هذا يا فيليرز، لن تجعل من نفسك الجلاد.

– لا، سأعطيها الخيار، سأترك هيلين فون وحدها مع الحبل في غرفة مغلقة لمدة خمسة عشر دقيقة. إذا دخلنا بعد ذلك ووجدناها لم تنه الأمر، سوف أستدعي أقرب رجل شرطة. هذا كل ما في الأمر.

– يجب أن أذهب الآن. لا أستطيع البقاء هنا أكثر من ذلك؛ لا أستطيع الاحتمال. طاب مساؤك.

– طاب مساؤك يا أوستين.

انغلق الباب، ولكنه فتح مجددًا بعد لحظة، وكان أوستين واقفًا

في المدخل، شاحبًا وخائفًا.

– لقد كدت أنسى، أنا أيضا لدي ما أخبرك به. لقد تلقيت خطابًا من د. هاردينج من بوينس آيرس . قال إنه اعتنى بميريك لثلاثة أسابيع قبل موته.

– وهل أخبرك بالسبب الذي أوْدى بحياته في مقتبل العمر؟ ألم تكن الحمى؟

– لا، لم تكن الحمى. وفقًا لما قاله الطبيب فإنه انهيار تام للجهاز العصبي كله. ربما بسبب صدمة عصبية حادة. وقال إن المريض لم يكن يخبره بأي شيء. وهذا كان عائقًا أمام علاج الحالة.

– هل هناك شيء آخر؟

"نعم. أنهى د. هاردينج خطابه بقوله 'أعتقد أن هذه هي كل المعلومات التي يمكنني إخبارك بها عن صديقك المسكين. لم يكن قد أمضى فترة طويلة في بونيس آيرس، وبالكاد كان يعرف أي شخص، باستثناء شخصية واحدة، ليست من أفضل الشخصيات، والتي غادرت بمجرد موته، وهي الآنسة فون.'"

٨

الشظايا

﴿عُثر على تلك المخطوطة بين أوراق الطبيب المشهور د. روبرت ماثيسون من شارع آشلي ببيكادلي، الذي مات فجأة على إثر سكتة دماغية، في بداية عام ١٨٩٢، وقد كتب عليها ملحوظات بالقلم الرصاص. هذه الملحوظات كانت باللغة اللاتينية، مختصرة للغاية، ومن الواضح أنها كتبت بعُجالة شديدة. تم حل شفرة المخطوطة بصعوبة شديدة، وبعض الكلمات لم يقدر أفضل المختصين على حلها حتى الآن. التاريخ "الخامس والعشرون من يوليو ١٨٨٨" مكتوب على الركن الأيمن من المخطوطة. والتالي هو ترجمة مخطوطة د. ماثيسون.﴾

"لا أعرف إن كان العلم سينتفع بهذه الملحوظات المختصرة

إذا تم نشرها أم لا، ولكني بالتأكيد لن أتحمل مسؤولية نشر أو إفشاء كلمة واحدة من المكتوب هنا، ليس فقط من أجل القسم الذي أقسمته بحرية أمام هؤلاء الشخصين الذين كانا حاضرين، ولكن أيضًا لأن التفاصيل بغيضة للغاية. ربما لهذا السبب وبعد إعادة النظر في الأمر، وموازنة المصالح والمفاسد، فربما عليّ يومًا ما أن أدمر هذه الورقة، أو على الأقل أتركها مختومة لصديقي الدكتور...، واثقًا في تقديره للأمر، يستخدمها أو يحرقها، كما يحلو له.

وقد فعلت كل ما خطر على بالي كي أتأكد أني لم أكن أعاني من أي توهم. في البداية كنت مصدومًا، بالكاد استطعت أن أفكر، ولكن في غضون دقيقة كنت متأكدًا أن نبضي ثابت ومنتظم، وأنني في حواسي الطبيعية والحقيقية. وبعد ذلك ركزت نظري بوضوح على الموجود أمامي.

بالرغم من الرعب والغثيان اللذين أصاباني، ورائحة التعفن التي خنقت أنفاسي، بقيت ثابتًا. لا أجرؤ على القول إن كانت ميزة أم لعنة أن أقف هناك وأشاهد هذا الشيء الراقد على

السرير أسود كالحبر، منمسخًا أمام عيني. الجلد، واللحم، والعضلات، والعظام، والهيكل المتين للجسم البشري الذي اعتقدت أنه صلب وغير متغير، بدأ يذوب ويتحلل أمام عيني. أنا أعلم أن الجسد البشري من الممكن أن يتحلل إلى عناصره الأولية بفعل عوامل خارجية، ولكني أرفض أن أصدق ما رأيته. لأنه كانت هناك قوة داخلية ـ لا أعلم عنها شيء ـ هي ما سببت هذا التحلل والتغير.

رأيت جوهر حياة الإنسان يتحلل أمام عيني. رأيت الهيئة تتبدل من جنس إلى جنس، وتنقسم على نفسها، ثم تعود وتتحد مرة أخرى. ثم رأيت الجسد ينحدر إلى الوحوش التي ارتقى منها. بينما ظل جوهر الحياة، الذي يجعل الكائن حيًا، كما هو لم يتغير، أخذت الهيئة الخارجية تتغير.

الضوء في الغرفة تحول إلى ظلام، ليس ظلام الليل الذي تستطيع أن ترى فيه الأشياء بشكل خافت، والذي أستطيع أن أرى فيه بغير صعوبة. ولكنه كان انعدام الضوء؛ فالأشياء ظاهرة أمام عيني ولكن بلا وسيط، لو كان هناك منشور في الغرفة ـ في

مثل هذه الحالة ـ فإنني لن أرى أي ألوان ظاهرة فيه.

وبالنهاية لم أعد أرى شيئًا إلا مادة كالهلام. هنا عاد للارتقاء مرة أخرى ... ﴿هنا جزء غير مقروء من المخطوطة﴾ ... وفي تلك اللحظة رأيت هيئة، تتشكل في العتمة أمامي، والتي لن أصفها أبعد من ذلك. ولكن رمز تلك الهيئة من الممكن رؤيته في التماثيل القديمة، والرسومات التي نجت أسفل الحمم البركانية، كريه لدرجة لا يمكن الحديث عنها ... كشكل مريع لا يوصف، لا هو إنسان ولا وحش، كان يتغير إلى هيئة بشرية، عندما جاء الموت في نهاية المطاف.

أنا الذي رأيت كل هذا، بكل رعب عظيم واشمئزاز في روحي، أكتب اسمي هنا، مقرًا أن كل ما في هذه الورقة حقيقي."

"روبرت ماثيسون، طبيب معالج."

هذه يا ريموند هي حكاية ما عرفته وما سمعته. العبء كان ثقيلاً عليّ كي أتحمله وحدي، ولكن لا أستطيع أن أخبر أحد إلا أنت. فيليرز الذي كان معي في نهاية الأمر، لم يكن يعرف شيئًا عن سر الغابة المريع، هذا الذي رأيناه سويًا يموت يستلقي على

العشب المنعش الأملس وسط زهور الصيف، نصفه في الشمس ونصفه في الظل، يمسك بيدي الفتاة راشيل، ينادي ويستدعي رفاقه، ويتجسد في هيئة مادية على الأرض التي نسير عليها.

الرعب الذي لا نستطيع إلا التلميح عنه، ولا نستطيع أن نسميه إلا من خلال الاستعارة. لن أخبر فيليرز أبدًا عن ذلك، ولا عن التشابه الذي صدمني وأصابني بالرعب حتى أعماق قلبي عندما رأيت الرسمة. لا أجرؤ على تخمين ماهية الذي رأيته. ما أعرفه أن ما رأيته يهلك لم يكن ماري. ولكن رغم ذلك فقد رأيت في سكرات الموت الأخيرة عينا ماري تنظران في عينيّ. إن كان هناك أحد يستطيع أن يعرف الحلقة الأخيرة في هذه السلسلة من المآسي المُريعة، فهو أنت يا ريموند. وإن كنت تعرف السر فالبوْح به من عدمه يعود إليك، كما تشاء.

أنا أكتب لك هذا الخطاب بمجرد عودتي إلى المدينة. فقد كنت في الريف الأيام القليلة الماضية؛ ربما يُمكنك أن تُخمن المكان بالضبط. فأثناء ذروة الرعب والذهول في لندن، ـ فإن السيدة بومونت كما أخبرتك، شخصية مرموقة في المجتمع ـ كتبت

إلى صديقي د. فيليبس أخبره ببعض الخطوط العريضة، أو بالأحرى بعض التلميحات، عما حدث، وسألته عن اسم القرية حيث وقعت الأحداث التي أخبرني بها من قبل.

أعطاني الاسم بلا تردد، فوالديّ راشيل قد ماتا، وبقية العائلة قد انتقلوا لأقارب لهم في ولاية واشنطن منذ ستة أشهر. الأب ـ كما قال ـ مات من الحزن والرعب الذي سببه له موت ابنته، وبسبب الأحداث التي جرت قبل موتها. في تلك الليلة التي تلقيت فيها خطاب فيليبس كنت في كارمين، واقفًا أسفل الجدران الرومانية المتهدمة، التي ابيضَّت بفعل مرور ألف وسبعمائة عام عليها، ونظرت عبر المروج حيث كان يومًا يقف المعبد القديم لـ "إله الأعماق". ورأيت بيتًا يلمع في أشعة الشمس، لقد كان البيت الذي عاشت فيه هيلين يومًا.

بقيت في كارمين لعدة أيام. وجدت أن أهل المكان عرفوا القليل، وخمنوا الأقل. والذين تحدثت إليهم تعجبوا من أن يهتم عالم أثار (كما قدمت نفسي لهم) بمأساة قريتهم، والتي صاغوا منها نسخة مألوفة، ولم أتحدث ـ كما تخمن ـ عن شيء مما أعرفه.

كنت أقضي معظم وقتي في الغابة الكبيرة التي تتجاوز القرية وتتسلق جانب التل، ثم تنحدر لأسفل ناحية النهر في الوادي؛ يا له من وادٍ جميل وممتد يا ريموند!، مثل الوادي الذي نظرنا إليه ذات ليلة صيف، ونحن نسير جيئة وذهابًا أمام بيتك.

تجولت خلال متاهات الغابة لمدة ساعة، منعطفًا يمينًا تارة ويسارًا تارةً أخرى، قاطعًا ببطء الممرات الظليلة والباردة بين الأشجار المتشابكة، أو متسكعًا في أشعة شمس الظهيرة، أسفل أشجار البلوط؛ أو راقدًا على الأعشاب القصيرة حيث تأتي الرائحة العذبة للزهور البرية مختلطة برائحة العطور الثقيلة للعجزة في مزيج غريب يشبه رائحة غرف الموتى، خليط من الرائحة العطرة والعفنة.

وقفت على حافة الغابة، أشاهد الزهور الحمراء باسقة من بين أجمة من النباتات متشابكة في عظمة وأبَّهة أسفل أشعة الشمس الساطعة، ومن وراء الأجمة الكثيفة المتشابكة تنفجر الينابيع من الصخور لتغذي النباتات المتسلقة الرطبة. ولكن طوال تجولي في الغابة تجنبت مكانًا واحدًا؛ ولم أتسلق قمة التل

إلا بالأمس، ووقفت على الطريق الروماني القديم، الذي يقطع أعلى قمة في الغابة.

هنا مشي هيلين وراشيل، عبر هذا الممر الهادئ، على ممشى من العشب الأخضر، مغطى على الجانبين بركامٍ من التراب الأحمر، وسياج عالٍ من شجر الزان، وهنا اقتفيت أثارٍ أقدامهما، وأنا أطل بين الحين والآخر، من الفرجات بين الأغصان، على الغابة التي تمتد بعيدًا لتختفي عند خط الأفق، ومن وراءها البحر الأصفر، والأراضي التي تمتد على ساحل البحر.

على الناحية الأخرى كان هناك الوادي، والنهر، والتل وراء التل، كالأمواج المتلاحقة، والغابات والمروج، وحقول الذرة، والبيوت البيضاء اللامعة، والجبل المرتفع، والقمم الزرقاء البعيدة في الشمال. وبالنهاية وصلت إلى المكان. وتتبعت أثار الأقدام على منحدر مطروق، ويتسع حتى يصل إلى مساحة مفتوحة بسياج من الشجيرات المتشابكة حوله، ثم يضيق مجددًا، مختفيًا في الأفق، في الضباب الأزرق الباهت لحرارة الصيف. ومن خلال هذه الفرجة المبهجة بين الأشجار ذات صيف عبرت راشيل

فتاة، وغادرتها، لا أعرف كيف أصف الأمر! لم أبق هناك لوقت طويل.

هناك متحف في مدينة صغيرة بالقرب من كارمين، يحتوي على أغلب الآثار الرومانية المتبقية، والتي تم العثور عليها في المنطقة المجاورة على فترات متباعدة. في اليوم التالي لوصولي إلى كارمين سرّتُ ناحية تلك المدينة متسائلاً، وانتهزت الفرصة لأستكشف المتحف. بعد أن رأيت أغلب ما يحتوي عليه المتحف من تماثيل صخرية، وتوابيت، وحُلى، وعملات، وشظايا من الفسيفساء. وعرض عليّ عمودًا مربعًا من الصخر الأبيض، تم اكتشافه مؤخرًا في الغابة التي كنت أتحدث عنها.

وبالتحقيق في الأمر عرفت أن المساحة المفتوحة كانت توسعة للطريق الروماني. على أحد جوانب العمود كان يوجد نقش، وقد قمت بكتابة ملحوظة عنه. بعض الحروف كانت مشوهة، ولكني أعتقد أنه لا يوجد شك في الحروف التي سأعرضها. النقش كان كالآتي:

--DEVOMNODENT--i
--FLA--v--IVSSENILISPOSSV--it
PROPTERNVP--tia
--qua--SVIDITSVBVMB--ra--

"إلى الإله العظيم نودينس (إله الأعماق أو الهاوية) أقام فلافيوسسينيليس هذا العمود على شرف الزواج الذي رآه وراء الظلال."

أخبرني المسئول عن المتحف أن علماء الآثار المحليين أصابتهم حيرة شديدة، لا بسبب النقش، ولا بسبب صعوبة ترجمته، بل بسبب الواقعة أو الطقس الذي يلمح إليه.

والآن، عزيزي كلارك، بالنسبة لما أخبرتني به عن هيلين فون، والتي قلت إنك رأيتها تموت في ظروف من الرعب المطلق. لقد أثار تقريرك اهتمامي، وإن كان جزء كبير مما أخبرتني به ـ وليس كله ـ أعرفه بالفعل. أستطيع أن أفهم الشبه الغريب الذي لاحظته بين الرسمة وبين الوجه الحقيقي؛ فأنت رأيت أم هيلين

من قبل. أنت تذكر هذه الليلة الصيفية الهادئة منذ عدة أعوام، عندما أخبرتك عن العالم وراء الظلال، وعن الإله بان. أنت تذكر ماري. لقد كانت أم هيلين فون، والتي ولدت بعد تسعة أشهر من تلك الليلة.

لم يعد إلى ماري رُشدها أبدًا. لقد رقدت ـ كما رأيتها من قبل ـ طوال الوقت على سريرها، وماتت بعد عدة أيام من مولد الطفلة. أعتقد أنها عرفتني بالنهاية؛ كنت أقف بجوار السرير، عندما عادت تلك النظرة القديمة إلى عينيها لمدة ثانية، ثم ارتجفت وتأوهت وماتت. لقد كان شيئًا شريرًا ما فعلته في تلك الليلة عندما كنت حاضرًا؛ لقد فتحت الباب المؤدي إلى عالمنا عنوة، بدون أن أعرف أو أهتم بما يمكن أن يعبر منه ويدخل. أنا أذكر أنك أخبرتني في ذلك الوقت ـ بحدة ولكنك كنت على صواب في نفس الوقت ـ أنني أذهبت عقل كائن بشري بناء على تجربة منافية للعقل.

كنت على حق في لومي، ولكن نظريتي لم تكن منافية للعقل بالكامل. ما قلت إن ماري ستراه رأته بالفعل، ولكني نسيت أنه

لا يمكن أن ترى عينيّ كائن بشري مثل هذا المشهد وتفلت من العقاب. وكنت قد نسيت ـ كما قلت للتو ـ أنه عندما يفتح باب المؤدي إلى عالمنا على مصراعيه، فإنه من الممكن أن يدخل من لا اسم له، ومن الممكن أن يصبح الجسد البشري وعاءً لرعب لا أستطيع التعبير عنه.

لقد لعبت بقوى لم أفهمها، ورأيت أنت نهايتها. لقد فعلت هيلين فون صوابًا يشنق نفسها بهذا الحبل لتموت، بالرغم من أن موتها كان مُريعًا. الوجه الأسود، والهيئة البشعة على السرير، تتبدل وتذوب أمام عينيك من امرأة إلى رجل، ومن رجل إلى وحش، ومن وحش إلى ما هو أسوء من وحش، كل هذا الرعب الذي شاهدته لم يفاجئني إلا قليلاً.

ما تقول إن الطبيب الذي أرسلت في طلبه رآه وارتعد لرؤيته، لاحظته أنا منذ زمن بعيد؛ لقد عرفت ما الذي فعلته في اللحظة التي ولدت بها الطفلة، وعندما بلغت الخامسة من عمرها تفاجأت برؤيتها ـ لا مرة ولا مرتين بل عدة مرات ـ مع رفاق لعب تستطيع أن تخمن من أي نوع. كان هذا يحدث بشكل مرعب

متواصل، وشعرت بعد بضعة سنوات أنني لا أستطيع التحمل أكثر من ذلك، فأرسلت هيلين فون بعيدًا.

أنت تعرف الآن ما الذي أرعب الصبي في الغابة. بقية القصة الغريبة، وكل ما أخبرتني به، والذي تم اكتشافه بواسطة أصدقائك، لقد قمت بافتعاله لأتعلم منه من حين لآخر، تقريبًا حتى الفصل الأخير. والآن هيلين مع رفاقها...

تمت

المترجم في سطور

أحمد صلاح المهدي

كاتب مصري، تخرج من كلية الآداب قسم اللغة العربية بجامعة القاهرة. تخصص في مجال الفانتازيا والخيال العلمي وأدب الطفل، وله العديد من المقالات الأدبية والنقدية على المواقع العربية مثل نون بوست وبوابة الكوميكس، ونشرت له مجموعة من قصص الأطفال بمجلة فارس بمصر، كما صدر له قصة أطفال بعنوان "الأرنب الشجاع" عن دار الأصالة بلبنان بالتعاون مع مؤسسة الفكر العربي. وقام بنشر رواية "ريـم" مع دار الكنزي للنشر بمصر.

للتواصل

www.ahmedmahdi.net

www.facebook.com/AlMahdi.1991

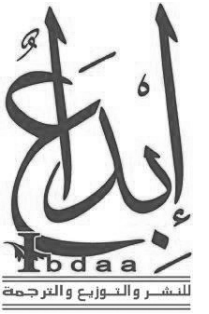

للاطلاع على أحدث إصدارات مؤسسة إبداع

يرجى زيارة الموقع الإلكتروني

www.prints.ibda3-tp.com